شرح رسالة

أمراض القلوب

لشيخ الإسلام ابن تيمية

كتبه

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الخلفاء الراشدين

دار الفتح الإسلامي



دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٤٩٤١

دار الخلفاء الراشدين
ج. م. ع - الإسكندرية - حي الرمل
شارع منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٥٠١٣١٥١-٠١٠-٠١٢٠١٥٢٩٠٨

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٢٧٧١٠٦٠-٠١٠٦٧١٤٣٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

فإن سلامة القلب سبب لنجاة العبد فى الدنيا والآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، قال مجاهد والحسن : بقلب سليم يعنى من الشرك ، وقال سعيد بن المسيب : هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب السليم من البدعة المطمئن إلى السنة ، فجمعت أقوال السلف عدة أمراض إذا سلم منها

القلب نجا صاحبه وأعظمها الشرك والكفر والنفاق والبدعة ، وذكر عكرمة في قوله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٠] أنهم الزناة ، فدل على مرض الشهوة المحرمة ، ونحن في زمان كثرت فيه فتن الشبهات والشهوات حتى ملأت كثيرًا من القلوب بالمرض ، وقل الطبيب الناصح وندر من يستعمل الدواء الناجع .

نحتاج إلى تزكية قلوبنا وتطهيرها من الأمراض ووقايتها مما يحيط بها ، ولا نجد مثل شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يوضح لنا كيفية الداء وكيفية استعمال الدواء ليحصل الشفاء بكتاب الله ﷻ .

وها نحن نقدم له هذه الرسالة المباركة « أمراض القلوب وشفاؤها » بشيء من الشرح والبيان ، عسى الله أن ينفعنا بها في الدنيا والآخرة ونسأله تعالى أن يجزل مثوبته ويرفع درجته ويغفر لنا وله وللمسلمين والمسلمات وأن يتوفانا مسلمين وأن يلحقنا بالصالحين ، آمين .

كتبه

ياسر برهامي

قال شيخ الإسلام تقِيُّ الدين أحمد بْن تيمية ـ رحمهُ الله تعالى ـ : « الحمدُ لله نَستَعينهُ ونستغفِرهُ ونَعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا ومِنْ سَيئاتِ أعمالنا مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَ له ومَنْ يُضلِلِ فلا هادي له ، وأشهدُ أَنْ لا إله إلا الله وحدَهُ ، لا شريكَ لَه وأشهدُ أَنَّ محُمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ، صلى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسلِيمًا .

قال اللهُ تعالى عن المنافقين : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (١) [البقرة : ١٠] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) [الحج : ٥٣] .

---

(١) قال جمهور المفسرين : « إن المرض المقصود في هذه الآية هو مرض الشك والشبهات التي تضل عن الحق كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما في هذه الآية : ﴿ مَّرَضٌ ﴾ ، قال : « شك » ، وربما غلب هذا المرض على القلب فيذهب بحياته بالكلية ومع ذلك يسمى مرضًا ، وأول الآية يدل على هذا النوع ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ٨-١٠] وهذا المرض ـ وهو مرض فساد التصور والاعتقاد ـ هو أحد نَوْعَي مرض القلب .

فمرض القلب نوعان : مرض الشبهات ، ومرض الشهوات .

فمرض الشبهات : فساد التصور والاعتقاد وهو فساد قوة القلب العلمية .

ومرض الشهوات : وهو فساد في الإرادة وقوة القلب العملية ، قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ومن تتبع أمراض القلوب الموجودة في القرآن يجد مَرَدّها إلى هذين النوعين من الأمراض .

(٢) **قال ابن كثير** رحمه الله : قدَّر الله ﷻ بعلمه وحكمته أن يلقي الشيطان في أسماع وقلوب بعض الناس ما لم ينزل به سلطانًا كما يدل عليه أول هذه الآية ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج : ٥٢] أ ي : إلا إذا قرأ ألقى =

الشيطان في قراءته أي في أسماع وقلوب بعض مستمعيه ما لم يَقُلْه الرسول ، وإنما تسلط الشيطان على قلوبهم وأسماعهم لما هم فيه من اتباع الظن والهوى ؛ فالمشركون لما في قلوبهم من الشبهات مثل اعتقادهم أن الملائكة بنات الله ، وأنها تشفع لهم عند الله ونحو ذلك ، ولما في قلوبهم أيضًا من اتباع لما يهوونه ويشتهونه من الرياسة وتعظيم الآباء والأجداد ونحو ذلك ، فبسبب ما في قلوبهم من الشبهات والشهوات تلقوا ما ألقاه الشيطان في أسماعهم وقلوبهم على أنه من قول الرسول وأن ذلك معنى كلام الرسول ﷺ ، وهذا ليس بمستغرب ولا مستبعدًا أن يكون الإنسان مشغوفًا بأمر معين شغفًا شديدًا حتى يُهيأ له أنه رأى هذا الشيء وهو لم يره حقيقة ، كشخص يجلس في الظلام خائفًا من رؤية عفريت مثلًا ، فمن شدة شغفه واهتمامه وخوفه يهيأ له أنه رأى عفريتًا ، وكذلك المشركون ؛ لشدة تعلق قلوبهم بالأصنام وبالشرك هيئ لهم أن الرسول موافق لهم في دعوتهم للشرك ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي يبطله ﷻ ويزيله ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي يبين ﷻ آياته بيانًا تامًا محكمًا قاطع الدلالة على التوحيد ونفي الشرك ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٢] أي قدَّر ذلك ـ سبحانه ـ بعلمه وحكمته ، ثم قال تعالى مبينًا حكمته في تقدير ذلك ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٣] أي فتنة للذين في قلوبهم مرض الشبهة أو الشهوة أو كليهما ، وفتنة للقاسية قلوبهم ، الذين مهما أقيمت الحجج وذكرت المواعظ لا يستجيبون ولا يتعظون ، أما أهل الإيمان فلم يقعوا فيما وقع فيه أهل الشرك والبدع والضلال الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤] .

وقد يكون إلقاء الشيطان في القلوب لا في الأسماع ، وعامة أهل البدع يقع لهم مثل ذلك ، فليس بلازم أن يسمع المبتدع كلامًا فيتوهمه من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ ، بل من الممكن أن يلقي الشيطان في قلبه معاني باطلة لكلام الله أو كلام رسوله ﷺ ، وإنما تمكَّنَ الشيطان من ذلك لما في قلوب هؤلاء من المرض ، والآيات الواضحات البيّنات قد نسخت فهمهم ذلك ، فما من صاحب بدعة إلا في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما يردّ عليه ، كما كان الأمر مع المشركين الذين رد عليهم القرآن كل ما زعموه من شفاعة الملائكة وعبادتهم لهم وأنهم
=

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ

بنات الله ونحو ذلك ، وقد نفى الله ﷻ عن رسوله ﷺ أمراض القلوب بأنواعها فقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم : ١-٢] فنفْيُ الضلال نفيٌ لفساد القوة العلمية ، ونفيُ الغيّ نفيٌ لفساد القوة العملية فهو ﷺ ليس عنده شبهات ولا شهوات تصده عن الحق .

أما اليهود والنصارى فإنما أهلكهم وجود أمراض الشبهات والشهوات ، فالمغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ عرفوا الحق ولكن لم يتبعوه ؛ لفساد إرادتهم ، والضالون ـ الذين هم النصارى ـ لم يعلموا الحق بل ظنوا خلافه ؛ فكان عندهم فساد في العلم والتصور الذي ينبني عليه فساد العمل .

وكلا المرَضين ـ الشبهات والشهوات ـ قد أصاب اليهود والنصارى إلا أن الغالب على اليهود الشهوات ، والغالب على النصارى الشبهات ، وهذه الأمراض يُقَوّي بعضها بعضًا ، فمن أُصيب بمرض الشبهة جرّه ذلك إلى أن يُصاب بمرض الشهوة ، ومن أُصيب بمرض الشهوة جَره ذلك إلى أن يُصاب بمرض الشبهة ؛ لذلك يسهل جدًا أن يقع أصحاب المعاصي في أنواع من الشبهات ، كما أن أهل البدع يَسْهُل جدًا أن يقعوا في أنواع من الشهوات ، فاليهود الذين كانوا يعرفون الحق ابتداءً ولكنهم تركوه للشهوة تجدهم بعد ذلك يعاقبون بأن يعتقدوا خلاف الحق ، كذلك النصارى الذين لم يتعلموا الحق بل اعتقدوا ضده كان فريق منهم ليس لهم رغبة في الشهوات ابتداءً ولكن عوقبوا على تركهم تعلم الحق بأن زُيِّنت لهم الشهوات المحرمة والوقوع فيها .

أما ما وقع في بعض الروايات أن الرسول ﷺ قرأ على المشركين سورة (النجم) فلما قرأ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٩-٢٠] فألقى الشيطان على لسانه ﷺ : (تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى) فهي قصة باطلة قطعًا سندًا ومتنًا ، فإلقاء الشيطان إما أنه في القلوب أو في الأسماع ، لا من قول الرسول ﷺ بل من قول الشيطان عليه لعنة الله [انظر (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) للعلامة الألباني رحمه الله] .

فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) [الأحزاب : ٦٠] .

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً ﴾ (٢) [المدثر : ٣١] .

---

(١) قال كثير من المفسرين : إن المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ في هذا الموطن هم الزناة الذين في قلوبهم مرض الشهوة ، كانوا يتعرضون للنساء في طرقات المدينة ليلًا رغبة في نَيْل الفاحشة ، فأمر الله ﷻ المؤمنات أن يتجنبن كشف الوجه ليَتَمَيَّزْنَ عن الإماء فلا يتعرض لهن هؤلاء الفُساق الذين يطمعون في الإماء لعِلْمهم أن الفساد في الإماء أكثر منه في الحرائر ، وبعد ذلك حذَّر الله ﷻ المنافقين والفُساق والمرجفين أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه فسوف يسلط ﷻ عليهم رسوله ويخرجهم من المدينة .

والمرجفون هم الذين يذيعون الخوف بين المؤمنين بقولهم : « جاء الحرب ، وجاء الأعداء » ، على وجه الشك في النصر على مثل هؤلاء كالفرس والروم ، وهؤلاء جمعوا بين مرض الشهوة والشبهة ؛ فإنهم كانوا حريصين على الدنيا وعلى البقاء فيها والأكل والشرب والأمن ونحو ذلك فأورثهم ذلك شكًّا في نصر الله ﷻ ، وأن الإسلام أمره سوف يضمحل ، وأن الأعداء سوف يقضون على المسلمين نهائيًا ، وكل ذلك من أمراض الشبهات ، فنَوْعا أمراض القلوب دائمًا مقترنان . أخبر ـ تعالى ـ عن هؤلاء بكونهم ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ أي مطرودين من رحمة الله ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٦١] قال السدي وغيره : « لو أن رجلًا اغتصب امرأة لم يكن حده الجلد بل حده القتل ؛ لقوله تعالى عن الزناة والفساق الذين يتحرشون بنساء المؤمنين ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ » ، وهذا استدلال قوي جدًا ؛ فاغتصاب الفروج أشد على المؤمنين من اغتصاب المال والنفس .

أما الآية التي نصت على وجود مرض الشهوة في القلب فهي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

(٢) إذا ضرب الله ﷻ مثلًا من الأمور الغيبية كعدد خزنة جهنم ، كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٣٠] ، قال المرتابون الذين في قلوبهم مرض الشبهة والشك ، وقال الكفار : ماذا

=

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] [يونس : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [(٢)] [التوبة : ١٤-١٥] .

أراد الله بهذا مثلًا ؟! لماذا ضرب لنا هذا المثل ؟! ولماذا حدد لنا هذا العدد من الملائكة ؟! حتى إن الكفار استهزؤوا بهذا العدد ، فقال أحدهم ـ وهو أبو الأشدين ، وكان قويًا شديدًا في المصارعة ـ قال : يا معشر قريش ، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر .

قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي اختبارًا لهم . ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ لأن عندهم في كتبهم ذكر هذا العدد . ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا ﴾ ؛ لأن كل آية تنزل يؤمنون بها يزداد بذلك إيمانهم . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ في أن القرآن الذي أُنزل على الرسول ﷺ حق من عند الله ﷻ . ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ مرض الشبهة من الشك والريبة . ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] فالتسعة عشر المذكورون في هذه الآية هم رؤوس الملائكة فقط ، وإلا فجنود الله تبارك وتعالى كثيرة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، كما قال ﷺ : « **يُؤْتَى يوم القيامة بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها** » [أخرجه مسلم (٢٨٤٢) ، الترمذي (٢٥٧٣)] .

(١) فالقرآن شفاء وموعظة ـ أي غذاء للقلوب فهو غذاء للقلوب وهدى ورحمة لمن آمن به واتبعه ـ.

(٢) بانتصار المسلمين على أعدائهم تُشْفَى صدور المسلمين مما أصابها من الهم والضيق والكرب والغيظ الذي أحدثه تسلط الكفار على المسلمين ، فالقلب يعتريه أنواع من الأمراض وأنواع من الشفاء ، وإن كان مثل هذا المرض ليس بمذموم في ذاته فهو كالمصيبة التي تصيب الإنسان بدون سبب منه فيتحملها ويصبر عليها .

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو فساد يكون فيه ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصَّمم ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرًا وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج .

وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته عن الهضم ، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ، ويحب الأشياء التي تضره ، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ، ولكن مع ذلك المرض لم يمُتْ ولم يهلك ، بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة ، فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية ، أو الكيفية .

فالأول : إما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء ، وإما بسبب زيادتها ، فيحتاج إلى استفراغ . والثاني : كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال ، فيداوَى [1] .
وكذلك مرض القلب ، هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ، ويحب الباطل الضار ، فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب . كما فسر مجاهد وقتادة قوله : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ [البقرة : ١٠] أي : شك ، وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله : ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

---

(١) حقيقة مرض البدن أن جزءًا أو أجزاءً من الجسم الحي ماتت وتوقفت عن العمل ، وبالتالي يشعر الإنسان بفقد وظيفة أو ألم في جسمه ، فمرض البدن نقص في حياته ، كذلك مرض القلب يكون بموت جزئيّ فيه فتنقص بذلك حياته .

ولهذا صنف الخرائطي كتاب (اعتلال القلوب) أي مرضها ، وأراد به مرضها بالشهوة ، والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح ، فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض .

والمرض ـ في الجملة ـ يُضْعِف المريض ويجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيق القوي ، والصحة تحفظ بالمثل ، وتزال بالضد ، والمرض يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه ، وزاد ضعف قوته ، حتى ربما يهلك ، وإن حصل له ما يقوي القوة ويزيل المرض ، كان بالعكس ، ومرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك ، فإن ذلك يؤلم القلب ، قال الله تعالى : ﴿ **وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [التوبة : ١٤-١٥] ، فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ، ويقال : فلان شُفِيَ غيظه ، وفي القَوَد استشفاء أولياء المقتول [١] ، ونحو ذلك ، فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن ، وكل هذه آلام تحصل في النفس .

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب ، قال النبي ﷺ : « **ألا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العِيِّ [٢] السؤال** » [٣] ، والشاكّ في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه ، حتى يحصل له العلم واليقين ، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق : « قد شفاني بالجواب » .

---

(١) المراد أن القصاص يُذْهب ألم أولياء المقتول .

(٢) العيّ : الجهل .

(٣) رواه أبو داود في السنن (٣٣٦) ، وحسنه الشيخ الألباني دون قوله : « إنما كان يكفيه ... » في صحيح أبي داود (٣٢٥) .

والمرض دون الموت ، فالقلب يموت بالجهل المطلق [١] ، ويمرض بنوع من الجهل ، فله موت ومرض ، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه ؛ فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قَوَّت مرضه ، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه [٢] .

قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج : ٥٣] ؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم ، ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ليبسها ، فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض ، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم ، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان ، فصار فتنة لهم .

وقال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [الأحزاب : ٦٠] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [٣] [المدثر : ٣١] ، لم تَمُت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين ، وليست

---

(١) (الجهل المطلق) أي الجهل الكامل وهو جهل الكفار الذين ماتت قلوبهم بالشرك بالله ﷻ ؛ أما قوله (نوع من الجهل) أي جزء منه وهو جهل دون الجهل الكامل ، والجهل يكون بعدم معرفة الحق أصلًا أو باعتقاد ضده .

(٢) الحكمة التي بها يعلم والموعظة التي بها يتذكر ، فالحكمة تُقَوِّي قوته العلمية والموعظة تُقَوِّي قوته العملية .

(٣) عطف ﷻ ﴿ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ على ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ ، وعطف ﴿ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ على ﴿ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فبيّن أن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ليسوا بالكافرين ولا المنافقين ، وإنما فيهم نوع من الكفر والنفاق ، وقد يطلق مرض القلب في القرآن أحيانًا على النفاق الأكبر كما تقدم ، وذلك يُعْرَف بدلالة السياق أو القرائن المحتفَّة .

صحيحة صالحة كصلاح قلوب المؤمنين ، بل فيها مرض شبهة وشهوات ، وكذلك ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، وهو مرض الشهوة .

فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعْفه ، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض [١] . والقرآن شفاء لما في الصدور ، ومَنْ في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه مِن البينات ما يزيل الحق من الباطل [٢] ، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم وللتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب ، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره ، فيبقى القلب محبًا للرشاد مبغضًا للغيّ ، بعد أن كان مريدًا للغي مبغضًا للرشاد .

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة ، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن [٣] .

---

(١) الاستجابة للشهوات تكون بالقلب أولًا ثم يتبعها البدن ، فإذا لم يتمكن الإنسان من غض البصر وحفظ الفرج ونحو ذلك ، فإنما ذلك لمرض قلبه ، ولو كان صحيحًا قلبه لَرَدّ ذلك وآله الخضوع بالقول والتبرج وسائر المعاصي .

(٢) أي ما يميز الحق عن الباطل وخصوصًا عند اشتباههما واختلاطهما .

(٣) القلب فُطِر على حب شرع الله ﷻ والميل له وكره ما يخالف الشرع ، فلو كان القلب سليمًا =

والزكاة في اللغة : النماء والزيادة في الصلاح ، يقال : زكا الشيء ، إذا نما في الصلاح ، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح [١] ، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، ولابد مع ذلك من منع ما يضره ، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره ، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره ، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا [٢] .

والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار [٣] ، صار القلب يزكو بها ، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب [٤] ، قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب ، وكذلك ترك المعاصي ، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ، ومثل الدغل في الزرع ، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة ـ كاستخراج الدم الزائد ـ تخلصت القوة الطبيعية واستراحت ، فينمو البدن ، وكذلك القلب إذا تاب من

على الفطرة لَمَا وُجِدتْ فيه الإرادات الفاسدة التي أصلها مِن حُبّ ما يضره ، والقرآن يزيل هذه الإرادات الفاسدة من القلب حتى يرجع إلى الفطرة التي فطره الله عليها .

(١) ينمو ويزيد كي يتسع بشهود حقائق الإيمان ويزداد منها .

(٢) فكما أن الزرع لابد له من ريٍّ وسماد ونحو ذلك ولابد له من إزالة الحشائش الضارة ومقاومة الآفات ، فكذلك القلب لابد من إصلاحه بالعبادات ومنع المحرمات والمنكرات التي تضره ، فلو أن أحدًا يفعل بعض الطاعات ولكنه في نفس الوقت يسمع بعض المنكرات كالأغاني والغيبة والنميمة ولا يغض بصره ونحو ذلك فكيف ينصلح قلبه ؟ فهذا كالمجروح الذي تعطيه جرعة من الدم ولكن تترك جراحه الكثيرة تنزف نزيفًا مستمرًا .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) ، وأحمد (١٥٣١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦) ، واللفظ للترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٤) فتطهير القلب من الذنوب أول طريق التزكية ، كما نقول : لابد من التخلية قبل التحلية .

الذنوب كان استفراغًا من تخليطاته ، حيث خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة ، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه ، فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [1] [النور : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [2] [النور : ٢٨] ، وقال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [3] [النور : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤-١٥] ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [4] [الشمس : ٩-١٠] .

---

(١) نزلت هذه الآية في أعقاب حادثة الإفك لتبين أن من عصمه الله ﷻ من الخوض في هذه الفتنة إنما كان بفضله ﷻ ورحمته ، فهو ﷻ الذي طهرهم من الوقوع في الغيبة والنميمة والقذف بالفواحش ، بينما المنافقون ـ في كل زمان ـ تجد مجالسهم كلها كلامًا عن الفواحش ، تجد الآن معظم المجلات والمسلسلات والأفلام تهتم جدًا بإشاعة الفاحشة بين الناس ويخترعون القصص والروايات من أجل ذلك ، فهذا من علامات النفاق ومرض القلب .

(٢) فكما أن القلب يزكو بترك الفواحش فإنه يزكو أيضًا بالتواضع وترك الكبر ، فمن قيل له : (ارجع) فسلَّم لحكم الله ﷻ ولم يجد في نفسه حرجًا فقد تواضع لله ﷻ ، أما المتكبر فيغضب ؛ لأنه يشعر أن له مكانةً كبيرة ، وأنه لابد أول ما يطرق الباب أن يُفتح له ونحو ذلك .

(٣) فإطلاق البصر للمحرمات يُعمي القلب ، وغض البصر عنها ينوره ويبصره ، كما قال بعض السلف : « من غض بصره أطلق الله نور بصيرته » ، ولعل هذا هو السبب في تسمية سورة (النور) بهذا الاسم ؛ لما فيها من أحكام تنير القلب بترك الشهوات ، وتحريم الزنا والقذف وإطلاق البصر ، وبيان أحكام الاستئذان والحجاب وغير ذلك .

(٤) أي قد أفلح من زكّاه الله بالتقوى كما قال ﷺ : « اللهم آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير =

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ﴾ [1] [عبس : ٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : ١٨-١٩] ، فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير ، فإنما تحصل بإزالة الشر ؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا . وقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [2] [فصلت : ٦-٧] ، وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب ، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب ، وإثبات إلهية الحق في القلب ، وهو حقيقة لا إله إلا الله . وهذا أصل ما تزكو به القلوب .

والتزكية : جعْلُ الشيء زكيًا ، إما في ذاته ، وإما في الاعتقاد والخبر ، كما يقال : عدّلته إذا جعلته عدلًا في نفسه ، أو في اعتقاد الناس ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] ، أي : تُخبِر بزكاتها [3] ، وهذا غير قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ

من زكّاها » [أخرجه مسلم (٢٧٢٢) ، والنسائي (٥٤٥٨) ، وأحمد (١٩٣٢٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٦)]

والذي يظهر من استدلال شيخ الإسلام بهذه الآية في هذا الموضع أنه قصد المعنى الثاني الذي قاله بعض المفسرين ، فالقول الأول الذي ذكرناه أن فاعل ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ هو الله ﷻ ويدل عليه تلاوة رسول الله ﷺ لهذه الآية في مقام الاحتجاج بالقدر . والقول الثاني أن فاعل ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ هو العبد ؛ فالعبد يُزكي نفسه فيفلح ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ ولكن القول الأول أظهرُ في تفسير الآية للحديث الوارد مع أن المعنى الثاني صحيحٌ في نفسه .

(١) نزلت في عبد الله بن أم مكتوم عندما جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام ، فالزكاة هنا سببها العلم الذي يورث خشية الله ﷻ .

(٢) جمهور المفسرين من السلف على أن معنى الزكاة في هذه الآية هو التوحيد والإيمان ، فهذا أصل تزكية النفس .

(٣) فليس معنى الآية ألا يسعى العبد في تزكية نفسه بل معناها أن لا يمدح نفسه ويقول إن نفسه زكية .

مَن زَكَّنهَا ﴾ [1] [الشمس : ٩] ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] ، وكان اسم زينب برَّة ، فقيل تزكي نفسها ، فسماها رسول الله ﷺ زينب [2] .

وأما قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٩] أي : يجعله زاكيًا ، ويخبر بزكاته [3] كما يزكّي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم . والعدل هو : الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب ، كما أن الظلم فساده ؛ ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالمًا لنفسه [4] ، والظلم خلاف

---

(١) أي قد أفلح من زكّى نفسه وأصلحها ، وكان الأصح هنا أن يذكر قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤] ؛ لأن قوله : ﴿ مَن زَكَّنهَا ﴾ مختلف في تفسيرها : هل الضمير عائد على العبد أم على الرب ، فيكون معنى الآية إما أنه : قد أفلح من زكى نفسه وأصلحها ، أو : قد أفلح من زكّاه الله ، والتفسيران صحيحان وإن كان الأصح أن يذكر الآية الأخرى المصرحة بتزكية العبد نفسه وإصلاحه لها ، أما وجه التلازم بين التفسيرين فإن الله ﷻ لا يزكي العبد إلا إذا عمل العبد لأجل ذلك وسعى في تزكية نفسه كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] كما أنه لا تصح تزكية بدون الاستعاذة بالله ﷻ والتوكل عليه ، كما كان يدعو الرسول ﷺ فيقول : « **اللهم آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها** » فالذي يسعى لتزكية نفسه دون توكل على الله ولا استعانة به بل معتمدًا على نفسه واثقًا بها فهذا سعيه فاسد ولن تصح تزكيته نفسه .

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٩) ، ومسلم (٢١٤١) ، وابن ماجه (٣٧٣٢) .

(٣) فذمَّ ﷻ من يخبر عن نفسه أنه صالح ، وأخبر أنه ﷻ الذي يعلم الأمور على حقيقتها ، كما أنه الذي بيده تزكية القلوب والنفوس .

(٤) الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، فمتى لم يصلح قلبه بل أفسده فقد ظلم نفسه بأن وضعها في غير الموضع الذي أُمِرَ أن يضعها فيه ، لذلك فإن المذنب يظلم نفسه في الدنيا قبل الآخرة ؛ لما يعود عليه من الغم والحزن والكرب ونحو ذلك من عاجل العقوبة ، وأعظم الذنوب الشرك بالله ﷻ ذلك بأنه أعظم الظلم ، والعياذ بالله .

العدل ، فلم يعدل على نفسه ، بل ظلمها ، فصلاح القلب في العدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم ، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر ، قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

والعمل له أثر في القلب ـ من نفع وضر وصلاح ـ قبل أثره في الخارج ، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها [١] . قال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ، قال بعض السلف : « إن للحسنة لنورًا في القلب [٢] ، وقوة في البدن [٣] ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن

---

(١) فمن أول ما يعزم الإنسان على فعل الطاعة أو المعصية يحصل في قلبه نوع من الصلاح أو الفساد بحسب ما عزم عليه ، فإذا فعل المعصية ظهر أثرها في الخارج ، فالزلازل والكوارث والأمراض الخبيثة والقحط والجدب وكل ما هو فساد إنما هو من آثار الذنوب ، قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] وأفسد ما يحصل هو ما يحصل في قلب الإنسان منذ أن يعزم على المعصية أو الشرك ، والعياذ بالله .

(٢) نورًا يبصر به الأمور ، فيراها على ما هي عليه ، فيرى الحق حقًا والباطل باطلًا ويراها على قدرها الحقيقي كما هي عند الله ، فيعظّم العظيم ويحقّر الحقير ، ولا يستعجل الآجال ولا تغره الآمال .

(٣) بعض السلف وهو في سن الثمانين قفز قفزة لا يستطيعها الشباب فتعجب مَن حوله من ذلك فقال لهم : « تلك أجسام حفظْنا الله فيها صغارًا فحفظها الله لنا كِبارًا » ، وقد بدأ النبي ﷺ جهاده بالسيف وسِنُّه ٥٣ سنة وكذلك كان سِنُّ أبي بكر ﵁ ٥٣ سنة حينذاك ، فهذا كله من بركة طاعة الله ﷻ .

للسيئة لظلمة في القلب ، وسوادًا في الوجه ووهنًا في البدن ، ونقصًا في الرزق ، وبغضًا في قلوب الخلق » .

وقال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، وقال : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ [1] أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، وتبسل أي : تُرتَهن وتُحبَس وتُؤسَر ، كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل : قد اعتدل مزاجه ، والمرض إنما هو بإخراج المزاج ، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل ، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه في الزيغ والظلم والانحراف ، والعدل المحض في كل شيء متعذر علمًا وعملًا ،ولكن الأمثل فالأمثل ؛ ولهذا يقال : هذا أمثل ، ويقال للطريقة السلفية : « الطريقة المثلى » ، وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . والله ـ تعالى ـ بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط ، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس .

والظلم ثلاثة أنواع [2] ، والظلم كله من أمراض القلوب ، والعدل صحتها

---

(١) العَدْل هو الشيء المساوي ، فـ ﴿ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي تأتي بكل فداء حتى لو بملء الأرض ذهبًا كي ينجو بنفسه لا يُقبل شيء من ذلك .

(٢) الظلم ثلاثة أنواع : ظلم العبد لغيره ، وظلمه لنفسه ، ولكن بالذنوب والمعاصي دون الشرك الأكبر ، والظلم الأكبر هو الشرك بالله ﷻ .

وصلاحها . قال أحمد بن حنبل لبعض الناس : « لو صححتَ لم تَخَف أحدًا » أي خوفك من المخلوق هو من مرضٍ فيك ، كمرض الشرك والذنوب .

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [١] [الأنعام : ١٢٢] لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢] [يس : ٧٠] وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [٣] [الأنفال : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

---

(١) هذا مثل المؤمن الذي آمن بعد كفره وضلاله ، وللكافر الذي علم الله أنه لن يؤمن ، فمثل المؤمن الذي آمن بعد كفره أنه كان ﴿ مَيْتًا ﴾ أي حال كفره ، ﴿ فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ أي بالإيمان ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ أي نورًا يبصر به الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغيّ ، ﴿ يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ يبصر طريقه بين اختلاف الناس ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ فهذا مثل الكافر الذي علم الله أنه لن يؤمن ؛ والشاهد من الآية أن الله ﷻ وصف المؤمن بالحياة والنور ، وهذا معنى قول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته » .

(٢) فإنما ينتفع بالإنذار من كان مؤمنًا أما الكفار فيحِقّ عليهم القول السابق لله ﷻ باستحقاقهم للعذاب عدلًا منه ـ تبارك وتعالى ـ ، والشاهد أن الله ﷻ وصف المؤمنين هنا بالحياة .

(٣) قوله ﷻ : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي إذا دعاكم لأنواع الطاعات التي بها يحيا القلب ، فالقلب الحي هو الذي يبصر الحق من الباطل ويريد وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ ويتحرك ليَرْضَى الله ﷻ عنه ، فيجد بذلك لذة وحلاوة الإيمان في قلبه ، ثم قال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ أي يحُول بين الكافر وبين الإيمان ، وبين =

﴿ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ [الروم : ١٩] ، ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن [١] .

وفي الحديث الصحيح : « **مَثَلُ البيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فيه والبيتِ الذي لا يُذكَرُ اللهُ فيه ، مثَلُ الحيِّ والميت** » [٢] ، وفي الصحيح أيضًا : « **اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا** » [٣] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [٤] [الأنعام : ٣٩] ، وذكر ـ سبحانه ـ آية النور وآية الظلمة ، فقال : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ

العاصي وبين الطاعة ، كما يحُول بين المؤمن والكفر وبين المطيع والمعصية ؛ فالكافر والعاصي لَمّا دعاهم الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى الحياة أول مرة فأبَوا واستكبروا أو أعرضوا وتركوا ، حالَ الله ﷻ بينهم وبين الإيمان والطاعة فتراهم يرَون الحق ولكن لا يستطيعون اتباعه ؛ لأن الله ﷻ قد حالَ بينهم وبين قلوبهم ، وكذلك المؤمن والمطيع لما استجابوا لله والرسول ﷺ أصبح قلبهم حيًّا بذلك ، فما تلبث المعاصي والشهوات تَعرِضُ لهذا القلب الحي حتى يردها لكمال حياته ، وهذا مجازاة من الله ـ تبارك وتعالى ـ لهؤلاء على طاعتهم واستجابتهم لله ولرسوله ﷺ ، فالأعمال تؤثر في القلب ولابد .

(١) وعلى هذا جرى تفسير كثير من السلف ، كما أخرج الله إبراهيم عليه السلام من أبيه آزر ، وأخرج من نوح عليه السلام ابنه الكافر ، والآية ـ وإن كانت تدل على هذا المعنى ـ إلا أنها أعم من ذلك ، فيدخل فيها إخراجه ﷻ الفرخ الحي من البيضة التي ليس فيها حياة ظاهرة ، ويُخرج من الماء والتراب الزرع ونحو ذلك ، كما يخرج من جسم الإنسان والحيوان فضلات ميتة ونحوه .

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٩) وابن حبان (٨٥٤) ، وأخرجه البخاري (٦٤٠٧) بنحوه .

(٣) فالبيت الذي فيه صلاة يُحيي الله ﷻ بها أهل البيت ، أما البيت الذي لا يُصلّى فيه فهو ميت كالقبر الذي لا يُصلّى فيه ، والحديث أخرجه مسلم (٧٧٧) ، وأحمد في المسند (٢٤٤١١ ، ٤٦٥٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٦٠) .

(٤) فهم لا يرون الحق ولا يسمعونه ، فهم في ظلمات الجهل والعياذ بالله .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (١) [النور : ٣٥] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، قال ابن مسعود ﷺ : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » فهو ﷻ موصوف بكل كمال وحمد ، فإذا كان النور وصفَ ثناءٍ لمخلوقاته ﷻ فهو ﷻ أولى بكل كمال على ما يليق به ﷻ ، فهو ﷻ النور الهادي ، فمعنى كلام ابن مسعود ﷺ أن نور السماوات والأرض أثرٌ من آثار وصفه ﷻ بالنور ، فإنه لم يكن ليخلق النور وهو ليس متصفًا به ؛ فكل وصف محمود من المخلوقين ، فهو من آثار صفات كمال الله ﷻ ، وليس معنى اتصافه عز وجل بالنور أنه نور كنور المخلوقين بل هذا كقولنا إن الرحمة في قلوب العباد هي من رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ أي أثر من آثار رحمته ، فليس النور المخلوق ولا الرحمة المخلوقة جزءًا من صفته ، تعالى الله أن يَحِلَّ في شيء من مخلوقاته .

ثم مثّل ﷻ لنور الإيمان في قلب عبده المؤمن فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ أي في قلب عبده المؤمن ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ المشكاة هي الكوَّة التي تكون في الجدار ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ في هذه الكوَّة مصباح ، والمصباح هو ذلك الفتيل المضيء ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ فإن المصباح الذي بدون زجاجة يكون عُرضة لتقلبات الرياح ، بخلاف الذي في زجاجة فإن نوره يكون ثابتًا مستقرًا ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ أي أن نور المصباح الخارج من الزجاجة كأنه نور كوكب مضيء ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي أن هذا المصباح يوقد من زيت شجرة كثيرة الخير ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي أنه يوقد من زيت شجرة الزيتون ، هذه الشجرة لا شرقية ـ أي تضربها الشمس أول النهار فقط ـ ، ولا غربية ـ أي تضربها الشمس آخر النهار فقط ؛ لأن موقع الشجرة يكون في ظل جبل أو نحوه ـ بل هي شجرة تضربها الشمس طوال اليوم ، وأفضل زيت زيتون يكون منها كأن تكون على رأس جبل أو مكان فسيح مثلًا وهذا معنى قوله : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي ليست شرقية فقط ولا غربية فقط بل هي شرقية غربية تضربها الشمس عند شروقها وغروبها ، وهذا الزيت من شدة نقائه وصفائه يكاد ﴿ يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ فإذا مسّته النار كان أحسن النور فهو ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ .

=

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (1) [النور : ٣٩-٤٠] .

= فالمشكاة هي صدر العبد المؤمن ، والزجاجة قلبه ، والمصباح المضيء هو الوحي المنزل ، وزيت الزيتون النقي هو الفطرة السليمة ، يكاد المؤمن أن يعرف الحق بنور الفطرة فإذا جاء الوحي المنزل على الفطرة السليمة كان نورًا على نور ، وشبَّه قلب المؤمن هنا بالزجاج ؛ لأنه يجمع بين الصفاء والصلابة ، فالصفاء دليل لدخول النور وخروجه منه أيضًا ، فالمؤمن يدخل إلى قلبه الإيمان كما أنه يضيء بنور إيمانه قلوب مَن حوله : ينير لهم الطريق إلى الله ، كما كان أصحاب الرسول ﷺ يضيئون الطريق للناس ويهتدون بهداهم ، وذلك بما استضاؤوا به من نور السراج المنير ﷺ ، وكذلك كان كل الأنبياء ﷺ يهدون الناس بما في قلوبهم من النور ، أما الصلابة فتدل على الثبات على الحق ، ليس كالسوائل التي تأخذ شكل الإناء التي فيه ، فقلبه ثابت على الحق لا يتغير ولا يتقلب بتغيّر الظروف وتقلبها ، بخلاف قلب المنافق ، وقد مثّل النبي ﷺ قلب المؤمن في عرض الفتن على القلوب بالصخرة البيضاء ، فقال : « **تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا ، فأيُّ قلب أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبَيْنْ ، على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبَادًا ، كالكُوز مُجَخِّيًا ، لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه** » [رواه مسلم (١٤٤) ، وأحمد (٢٣٤٨٧ ، ٢٣٣٢٨)] ، فالبياض للبصيرة والصلابة للثبات على الحق ، فهذا كمال القوة العلمية والعملية للقلب .

(1) هاتان الآياتان مثلان للذين كفروا ، فالآية الأولى مثل لرؤوس الضلال الذين يعتقدون الباطل ويظنونه حقًا ، فهو كالعطشان الذي يرى السراب ويظنه ماءً ، وكذلك أعمالهم يظنون أنها تنفعهم عند الله ، فإذا جاء يوم الحساب وجد أعماله تلك كأن لم تكن ووجد الله عنده ليحاسبه فيوفيه الحساب على كفره ، والله سريع الحساب .

=

فالأول : مَثَلُ الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال التابعة لها ، يحسبها صاحبها شيئًا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئًا ينفعه ، فوفَّاه الله حسابه على تلك الأعمال [1] .

والثاني : مَثَلٌ للجهل البسيط ، وعدم الإيمان والعلم ، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئًا ، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [2] [الأعراف : ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا**

والآية الثانية فمَثَلٌ لعوام الكفار المقلِّدين ، فهم غارقون في ظلمات الجهل ، كالغريق تحت الماء في وسط الأمواج التي في باطن البحر ، وفوق ظلمة هذا الموج الباطن ظلمة الموج الأعلى وفوق ذلك ظلمة السحاب ، ففي ذلك بيان لمدى الظلمة التي يكون فيها الكافر ، فقلب الكافر في ظلمة ووحشة شديدة . قال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور : ٤٠] ؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم اجعل في قلبي نورًا ، وفي بصري نورًا ، وفي سمعي نورًا ، وعن يميني نورًا ، وعن يساري نورًا ، وفوقي نورًا ، وتحتي نورًا ، وأمامي نورًا ، وخلفي نورًا، وأعظم لي نورًا** » [رواه مسلم (٧٦٣) ، وأبو داود (١٣٥٣) ، والنسائي (١١٢١)] ، وهذه الآية فيها إعجاز علمي حيث أفادت وجود أمواج في باطن البحر تحت الأمواج الظاهرة .

(١) كما قال الله ﷻ عن أمثال هؤلاء : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ** ﴾ [الغاشية : ٢-٣] ، فهُم يعملون ويُتْعِبون أنفسهم في العمل وعندهم أمل أن ينفعهم ذلك العمل ، كالظمآن الذي يأمل أن يجد مكان السراب ماءً ، فبعض رهبان النصارى مثلًا يفتخر أنه يظل السنين الطويلة لا يمس جسده ماءٌ ، فهو يظن ذلك عملًا صالحًا ينفعه وهو في الحقيقة عكس ذلك . وهذا على أحد الوجهين في تفسير الآية : أنها عاملة في الدنيا ، ناصبة فيها أي تتعب ، والوجه الثاني : أنها يوم القيامة في أشد النصب والعمل الذي يُعَذَّبون به في النار .

(٢) يبصرون بنور العلم والإيمان الحق من الباطل والرشاد من الغيّ .

﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (١) [يوسف : ٢٤] ، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه ، فصرف الله به ما كان هَمَّ به ، وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرًا ، ولم يفعل سيئة .

قال تعالى : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] ، وقال : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين : مثلًا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد ، ومثلًا بالنار التي بها النور وما يقترن بها يوقد عليه من الزبد . وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين . قال تعالى (٢) : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ

---

(١) هَمُّ امراة العزيز لم يكن همًّا مجردًا عن الأخذ بالأسباب ، بل هو هَمٌّ مع الأخذ بالأسباب وذلك يسمى عزمًا ، ولم يمنعها من ذلك الخوف من الله ـ تبارك وتعالى ـ ، بل منعها من ذلك هروب يوسف منها ولُقياها سيدها لدى الباب ، أما هَمُّ يوسف عليه السلام فهو هَمٌّ مجرد عن الأخذ بالأسباب وذلك يسمى حديث النفس ، وهذا موجود في كل نفس إنسانية ، وهذا النوع من الهم لا يُكتب سيئة ما لم يعزم عليه ، بل تُكتب حسنة إذا ترك هذا الهم خوفًا من الله ـ تبارك وتعالى ـ ، كما قال ﷺ : « **من هم بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كُتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها ، لم تكتب ، وإن عملها كُتبت** » [رواه مسلم (١٣٠) ، وأحمد (٢٥١٩)] .

(٢) في المؤمنين .

زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (١) [الرعد : ١٧] .

---

(١) ضرب الله ﷻ في هذه الآية مثلين للحق والباطل في قلوب المؤمنين ، فقال تعالى في المثل الأول : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ فهذا هو الحق والوحي الذي أنزله - على رسوله ﷺ - ، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ كل وادٍ امتلأ ماءً وسال به بقدر حجمه ، فالوادي الواسع سال به ماءٌ كثير ، والوادي الضيق سال به ماءٌ قليل ، والقلوب كالوديان ، كلٌّ منها يمتلئ بالعلم والإيمان والعمل الصالح ولكن بقدر ، ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أي أن سيل الماء اختلط به الزبد مثل حشيش الأرض ونحو ذلك فحمله وجعله رابيًا مرتفعًا فوق الماء ، وهذا مثال للباطل الذي قد يخالط الحق في قلوب المؤمنين كالذنوب ونحو ذلك ، فالماء النقيّ الخالص هو الأصل والزبد طارئ عليه .

ثم ضرب الله ﷻ مثلًا آخر فقال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ أي أن أنواع المعادن التي تُصهر للاستفادة منها في الحلية - كالذهب والفضة - ، أو في المتاع - الحديد والنحاس - ، هذه المعادن يختلط بها أيضًا أنواع من الشوائب والزبد ، ولابد أن تدخل الكير حتى تُنَقّى ، فهذا مثال للحق والباطل في قلوب المؤمنين ، كالمعادن المخلوطة بالشوائب .

والمثال الأول ضُرب لقلوب الخُلّص من العباد ، فالإيمان في قلوبهم هو الأصل والزبد عارض عليه ، وسريعًا ما يزول هذا الزبد ، أما الإيمان في المثل الناري فمخلوط بالزبد ابتداءً ، ويحتاج لأنواع من المحن والفتن لكي يُنَقّى ويُصفّى من الزبد ؛ فهو ليس سريع الزوال .

والله ﷻ جعل قلوب عباده أنواعًا : فمنها ما فُطر على الحق وإذا جاءه الباطل فسريعًا ما يذهب ، ومنها ما ليس كذلك ، فلذلك يحتاج إلى مزيد من الجهد كي يصلح نفسه ، وقد قال ﷺ لأشج بن عبد القيس : « **إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة** » [مسلم (١٧) ، الترمذي (٢٠١١) ، ابن ماجه (٤١٨٨)] ، فبعض الناس فُطِر على الحلم والأناة وبعضهم فطر على سرعة الغضب والعجلة ، فهذا يحتاج إلى جهد أكبر كي يصلح نفسه ويهذبها ، كما قال ﷺ : « **إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلم بالتحَلُّم ، ومن يتحرَّ الخيْرَ يُعطَهُ ،** =

وقال تعالى في المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) [البقرة : ١٧-٢٠] فضرب لهم مثلا

ومن يتَّقِ الشرَّ يُوقَهُ » [رواه الدارقطني في الأفراد ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨)] ، فكما أن عقول البشر متفاوتة فهناك العاقل وهناك من هو أقل منه عقلًا ، فكذلك القلوب والأخلاق ، ولا يقال للأقل علمًا : « لا تتعلم » ، بل يقال له : « تعلم وجاهد قدر استطاعتك » ، فهناك من فطره الله ﷻ على الشجاعة والكرم أو العلم أو غير ذلك من الصفات الجميلة ، وهناك من هو غير ذلك فيجاهد نفسه ليهذبها ويصلحها ويجعلها تتخلق بالأخلاق الجميلة ، ولا يقال إنه ليس هناك فائدة من التهذيب ، فالتهذيب كالنار والكير يخرج به ما في القلب من الباطل والدخن ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ يذهب ضائعًا سواء الزبد الذي في الماء يلقيه السيل على جانبي الوادي ويستمر في طريقه أو الزبد الذي في المعادن يطفو فوقها عند صَهرها ويُزال .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ما ينفع الناس من الماء أو من الذهب والفضة وأنواع المعادن ، كل ذلك هو الذي يمكث ويبقى بعد ذلك بعد ذهاب الزبد ، وهذا ما يجعل المؤمنين يشعرون بالطمأنينة ، فإن كل الزبد والباطل الذي يواجهونه سوف يزول ، وما عليهم إلا أن يلتزموا بالإيمان والعمل الصالح ، فإذا أردنا أن يدوم عملنا وتدوم دعوتنا فلابد أن نلتزم بالوحي المنزل من عند الله والتخلص من الزبد والباطل الذي قد يدخل من الخارج ، أو قد يكون موجودًا أصلًا ، فلابد من التنقية وإصلاح القلوب .

(١) ضرب الله ﷻ مَثَلين للمنافقين فقال تعالى في المثل الأول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ليرى الحق من الباطل ، ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ لما علم الله ﷻ ما في =

كالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفأها الله .

والمثل المائي كالماء النازل من السماء ، وفيه ظلمات ورعد وبرق يُرى . ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر . وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها ، وفي الدعاء المأثور : « **اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا** »[1] ،

قلوبهم من الخبث أذهب عنهم نور النار التي يرون بها الحق من الباطل ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ فهذا مَثَل الذي آمن ثم نافق ـ والعياذ بالله ـ ولم يذكر الله ﷻ أنه أذهب عنهم دخان النار ولا حرارتها وإنما ذكر أنه (ذهب بنورهم) ففي ذلك إشارة لبقاء دخان النار وحرارتها ، فهو عذاب الكفر والنفاق وغمه وهمه ، قال تعالى : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ صم لا يسمعون الحق ، بكم لا يتكلمون به ، عمي لا يرونه ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لا يرجعون عن نفاقهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فيه دليل لمن قال إن هذه الآية نزلت فيمن آمن ثم نافق ، ثم ذكر الله ـ تعالى ـ المثل الآخر للمنافقين فقال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي أن هؤلاء الصنف من المنافقين مَثَلهم كمَثَل رجل أصابه مطر وهذا المطر فيه ظلمات ورعد وبرق ، والظلمات هي ما يحصل للمنافقين من أنواع الجهل والشك والريب في الحق الذي نزل من عند الله ، وهو نزَل لإحياء القلوب كما يُحيي المطر الأرض ، لكنهم لضلالهم وجهلهم أصابتهم الشكوك ، والرعد هو ما يزعج القلوب من الخوف ، والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي لشدته وقوته وضعف بصائرهم فهم ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي تارة أخرى تعرض لهم ظلمات الشكوك فتظلم قلوبهم بها فوقفوا حائرين ، فالمثل الناري في المنافقين الخُلّص والمثل المائي في الحائرين المتشككين .

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٧) ، وابن حبان (٩٧٢) ، والطبراني في الكبير (٢٧٠ ، ١٠٣٥٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢) .

والربيع : هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات [(١)] ، قال النبي ﷺ : « **إنَّ مما ينبت الربيع ما يَقْتل حَبَطًا أو يُلِمُّ** » [(٢)] ، والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع ؛ لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه ، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء ، فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار ، وتنبت الأوراق على الأشجار والقلب الحي المنور ـ لما فيه من النور ـ يسمع ويبصر ويعقل ، والقلب الميت لا يسمع ولا يبصر .

قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [(٣)] [البقرة : ١٧١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ [(٤)] [يونس : ٤٢-٤٣] ،

---

(١) فالقرآن في القلوب كمطر الربيع بسببه تنبت الأرض وتحيا ، وكذلك القرآن ينبت في القلوب معاني الخير ، فجمع في هذا الحديث بين الحياة التي تتضمن الحركة والنمو ، والنور الذي هو العلم وإدراك الحقائق على ما هي عليه .

(٢) قوله ﷺ : « **ما يَقْتل حَبَطًا** » أي تموت البهيمة بكثرة الأكل ، وقوله ﷺ : « **أو يُلِمُّ** » معناه : أو يقارب القتل ، والمقصود أن الخير الدنيوي قد يزيد حتى يصبح شرًا على صاحبه ، يُمرِضه أو ربما أهلكه ، والحدث أخرجه مسلم (١٠٥٢) ، وابن ماجه (٣٩٩٥) ، وابن حبان (٣٢٢٧) .

(٣) فمثل الذين كفروا مع نداء القرآن كمثل البهائم التي ينادي عليها الراعي بصوته ، فالبهائم لا تعقل هذا النداء ، ولا تفهم منه شيئًا ، ولا تدرك منه إلا مجرد الصوت ، قال تعالى عنهم : ﴿ **صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ ؛ وإنما أصابهم الله ﷻ بهذا الصمم والبكم والعمى ؛ لأنهم أعرضوا عن الحق .

(٤) فالكفار لهم سمع وبصر وحواس يعقلون بها أمور دنياهم ، ولكنهم لما قامت عليهم =

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الآيات [1] [الأنعام : ٢٥] فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بها رأوه من النار ، كما أخبر عنهم حيث قالوا : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [2] [فصلت : ٥] . فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار ، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص ؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم ، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقرة : ١٧١] فشبههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

الحجج وأعرضوا عن الحق ، صاروا بذلك صُمًّا لا يسمعون ولا يعقلون الحق ، وصاروا عميًا لا يبصرون الهدى .

(١) ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي عليها أغطية فلا يفهمون القرآن ، ﴿ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي ثقلًا ، فكأنهم لا يسمعون القرآن ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ بالرغم من وضوح الآيات كالشمس ، وهذا كله عقاب من الله ﷻ ؛ لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة .

(٢) وقد قالوا ما قالوه على سبيل التهكم والعناد ، أي أنك مهما فعلت فلن نؤمن لك ، أو هذا من باب الاحتجاج بالقدر ، فيحتجون على تكذيبهم للرسول ﷺ بالقدر .

فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢] ، وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها ، فيقول هؤلاء : « هذه الآية في الكفار ، والمراد بالإنسان هنا الكافر ، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يُظهِر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب ، بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرًا للشرك من العرب ، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر ، كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ، ونحو ذلك ، فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده » .

فيقال أولًا : المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق ، والمنافقون كثيرون في كل زمان ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار .

ويقال ثانيًا : الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر ، وإن كان معه إيمان ، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه : « **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** » [1] فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » [2] ، وأبو ذر رضي الله عنه من أصدق الناس إيمانًا ، وقال في الحديث الصحيح : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء**

---

(١) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٩) .

(٢) رواه البخاري (٣٠) ، مسلم (١٦٦١) .

بالنجوم »[1] ، وقال في الحديث الصحيح : « **لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** » ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « **فمن ؟!** »[2] ، وقال أيضًا في الحديث الصحيح : « **لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها ، شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع** » ، قالوا : فارس والروم ؟! قال : « **ومن الناس إلا هؤلاء ؟** »[3] .

وقال ابن أبي مُلَيْكَة : « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه »[4] ، وعن علي ـ أو حذيفة ـ رضي الله عنهما قال : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف[5] فذاك قلب الكافر ، وقلب منكوس[6] ، فذاك قلب المنافق ، وقلب فيه مادتان : مادة تمده الإيمان ، ومادة تمده النفاق ، فأولئك قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا »[7] .

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦) .

(٣) رواه البخاري (٧٣١٩) .

(٤) فمثل هذه الآيات نزلت في كل الناس ولكن بدرجات متفاوتة ، فهي أصلًا في الكفار وتنطبق عليهم انطباقًا كاملًا ، والمنافقون النفاق الأكبر المنسوبون للمسلمين هم في الحقيقة كفار ، فهذه الآيات لهم أيضًا ، وبعض المؤمنين الذين عندهم نفاق أصغر يكون لهم حظ من الخطاب بمثل هذه الآيات ، فكثير من الناس ـ لنقص إيمانهم ـ تجدهم يسمعون الآيات ولا يفهمونها ولا يستجيبون لها ، فيكون فيهم شبه بهؤلاء الكفار الذين نزلت فيهم الآيات .

(٥) قلب أغلف : أي مُغَطًّى لا يدخله الإيمان .

(٦) قلب منكوس : أي كالإناء الذي نُكِّس ؛ فلا يستقر فيه شيء ، وكذلك قلب المنافق لا يستقر فيه خير .

(٧) والشاهد أن الناس ليسوا كلهم كفارًا ، بل فيهم منافقون وفيهم من فيه بعض صفات

=

وإذا عُرف هذه عُلِم أن كل عبد ينتفع بما ذَكَر اللهُ في الإيمان من مَدح شعب الإيمان وذمِّ شعب الكفر ، وهذا كما يقول بعضهم في قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، فيقولون : المؤمن قد هُدِيَ إلى الصراط المستقيم ، فأي فائدة في طلب الهدى ؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثَبِّتنا على الهدى ، كما تقول العرب للنائم : نم حتى آتيك ، أو يقول بعضهم : أَلْزِم قلوبَنَا الهدى ، فحذف الملزوم ، ويقول بعضهم : زدني هدى ، وإنما يوردون هذا السؤال ؛ لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه ، فإن المراد به العمل بما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور .

والإنسان وإن كان أقر بأن محمدًا رسول الله ، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال ، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره ، وما أمر به ، وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه [١] ، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه [٢] ، ولو قُدِّر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة ، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية ، لا يمكن غير ذلك ، لا تذكر ما يُخَصُّ به كل عبد [٣] ؛

الكفار والمنافقين .

(١) فالإيمان منه مجمل ومنه مفصل ، ومعرفة الصراط المستقيم تكون بمعرفة تفاصيل الإيمان بعد إجماله .

(٢) فكم من إنسان يعرف الحق ولا يستجيب له ، فالهداية إلى الصراط المستقيم تكون بالعلم والعمل ، بالإجمال والتفصيل .

(٣) لأن كل عبد يعرض له مواقف تفصيلية يحتاج لمعرفة حكمها الشرعي ، ولا يمكن أن ينص القرآن والسنة على كل موقف من الممكن أن يتعرض له العبد ، فمثلًا القرآن والسنة ورد فيهما أن الربا حرام ، وأنت أمامك الآن مال سوف تأخذه ولا تعرف أهو ربا أم لا ؟ فهذا =

ولهذا أُمِر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم .

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله ، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلًا ، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ، ويتناول إلهام العمل بعلمه ؛ فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (1) [الفتح : ١-٢] ، وقال في حق موسى وهارون : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات : ١١٧-١١٨] .

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية ، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدًا حق ، والقرآن حق ، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا (2) ثم الذين علموا

موقف تفصيلي تعرضه على الحكم العام بتحريم الربا . فالصراط المستقيم يتضمن تفاصيل كثيرة ، وهو يحتاج إلى الهداية إليه في باب العلم إجمالًا ، ثم تفصيلًا ثم فيما يخصه في كل حال وفي باب الإرادة والعمل يحتاج إلى الهداية حتى يحب الحق ويريده وينوي فعله ، ثم يفعله ، ثم يثبت عليه ويلزمه إلى أن يلقى الله وهو سالم من محبطات الأعمال .

(١) فالصلح يوم الحديبية حتى مع الشروط التي وضعها المشركون كان هو الفتح والخير الذي هدى الله ﷻ رسوله ﷺ إليه ، وكان ذلك من هداية الله ﷻ لرسوله ﷺ : والمقصود أن الهداية يحتاجها الإنسان ولو بلغ أعلى المقامات .

(٢) فاختلاف أهل الإسلام ووجود أهل البدع والضلال فيهم يدل على أنه ليس كل أهل الإسلام هُدِيَ إلى الصراط المستقيم في الإجمال والتفصيل ، فكلهم متفقون إجمالًا أن الرسول حق والقرآن حق ولكن اختلفوا في التفصيل .

ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه ، فلو هُدُوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أُمِروا به وتركوا ما نُهُوا عنه ، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة ، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائمًا في أن يهديهم الصراط المستقيم .

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين ، قال سهل بن عبد الله التستري : « ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار » ، وما حصَّل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل ، وهذا حقيقة قول من يقول : ثبتنا واهدنا لزوم الصراط [1] . ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة ، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه .

وقول من قال : زدنا هدى ، يتناول ما تقدم ، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم ، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ، ولا يكون مهتديًا حتى يعمل في المستقبل بالعلم ، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب ، وإن حصل فقد لا يحصل العمل ، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء ؛ وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم ، حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة ، والله أعلم .

---

(١) فالهداية للصراط المستقيم تشمل العلم والعمل بالإجمال والتفصيل ، ثم بعد ذلك الثبات على هذا العلم والعمل ، فهذا هو حقيقة قول من يقول : « إن قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي ثَبِّتْنا واهدنا لزوم الصراط ؛ لأن هناك بعض الناس يترك العمل الصالح بعد ما كان مداومًا عليه ، فالإنسان يحتاج للثبات على الصراط في المستقبل .

[لوازم حياة القلب] (*)

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية ، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته ، كأبي الحسين البصري ، قالوا : « إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر » ، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف ، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية ، وهي أيضًا مستلزمة لذلك ، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة ، وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي . والحياء مشتق من الحياة ، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيًا فيه حياء يمنعه عن القبائح ، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ : « **الحَيَاءُ مِنَ الإيمانِ** » (1) ، وقال : « **الحَيَاءُ والعِيُّ شُعبَتَانِ مِنَ الإِيمانِ ، والبذَاءُ والبَيَانُ شُعبَتَانِ مَنَ النِّفاقِ** » (2) ، (3) ، فإن الحي يدفع ما يؤذيه ، بخلاف الميت الذي

(*) العناوين ليست من وضع شيخ الإسلام .

(1) رواه البخاري (٢٤) ، ومسلم (٣٩) .

(2) رواه الترمذي (٢١١٣) ، وصححه الألباني .

(3) العِيُّ هنا هو العجز عن المداراة في الكلام بحيث يخبر بالأمور كما هي على حقيقتها ، فلا يجعل الباطل حقًا ولا الحق باطلًا ، أما البيان المقصود هنا فهو الذي يزين الباطل فيصوره للناس حقًا أو العكس ، فهذا وصفه الرسول ﷺ بأنه شعبة من النفاق وهذا هو البيان الذي قال عنه ﷺ : « **إن من البيان لسحرًا** » [رواه أبو داود (٥٠٠٧) ، وصححه الألباني] ، وهذا هو اللحن الذي قال عنه ﷺ : « ... **ولعل بعضكم أَلْحَن بحجته من بعض** ... » [رواه البخاري (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣)] ، ومثال ذلك : المحامي الذي يُظهِر المجرم في صورة البريء وهو في الحقيقة مجرم ، فهذا هو البيان الذي هو شعبة من شعب النفاق ، وليس كل بيان =

لا حياة فيه فإنه يسمى وقحًا ، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة [1] ، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبح ، كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام ، بخلاف الأرض الخضرة .

ولهذا كان الحيِيّ يظهر عليه التأثر بالقُبح ، وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح ، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك . فالقلب إذا كان حيًا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه ، كان موت النفس فراقها للبدن ، ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ [البقرة : ١٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، مع أنهم موتى داخلون في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الحج : ٦٦] ،

نفاقًا ، وإلا فالرسول ﷺ سماه الله ﷻ رسولًا مبينًا ، أي يبيّن للناس الحق من الباطل بأسلوب واضح بيِّن ، فهذا ليس من النفاق من شيء ـ والعياذ بالله ـ بل ذلك من صفات الرسول ﷺ ومن صفات أصحابه ﭫ من بعده .

(١) فمثلًا إذا أردنا أن نعرف وجود شلل أو مرض في قدم إنسان فإننا نشُكُّه في قدمه فإذا حركها ليدفع ما يؤذيه عنها ، عرفنا أن رِجْله ليست بمشلولة ؛ إذًا رِجله فيها حياة ، أما إذا لم يحركها عندما نشُكُّه ؛ فإن ذلك دليل على شلل أو مرض في رِجله ، إذًا كان هناك نقص أو انعدام حياة فيها ، وكذلك القلب الحي يشعر بما يؤذيه من المنكرات والخبائث ويدفعه ويرده ، وهذا هو الحياء ، أما إذا كان ناقص الحياة أو عديمها ، فإنه لا يشعر بما يؤذيه فلا يرده ولا يدفعه .

فالموت المثبَت غير الموت المنفي . المثبت : هو فراق الروح البدن ، والمنفي : زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن .

وهذا كما أن النوم أخو الموت ، فيسمى وفاة ويسمى موتًا، وإن كانت الحياة موجودة فيهما ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٤٢] . وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول : « **الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور** » [١] ، وفي حديث آخر : « **الحمد لله الذي رد عليّ روحي ، وعافاني في جسدي ، وأذن لي بذكره ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا** » [٢] ، وإذا أوى إلى فراشه يقول : « **اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين** » [٣] ، ويقول : « **باسْمك اللهم أموت وأحيا** » [٤] .

***

ومن أمراض القلوب الحسد ، كما قال بعضهم في حَدِّه : إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء [٥] ، فلا يجوز أن يكون الفاضل حسودًا ؛ لأن

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(٢) رواه الترمذي بنحوه (٣٦٤١) ، وحسنه الألباني .

(٣) رواه البخاري (٧٣٩٣ ، ٦٣٢٠) ، ومسلم (٢٧١٤ ، ٢٧١٢) .

(٤) رواه البخاري (٦٣١٤) بلفظ : « **اللهم باسمك أموت وأحيا** » ، مسلم (٢٧١١) بلفظ : « **اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت** » .

(٥) ليس المقصود أن المحسود يكون غنيًا بالمال فقط ، بل قد يُحسَد على غناه بالصحة أو الرياسة ، فالفقر كما يكون في المال يكون في الصحة والرياسة وغيرها ، كالمريض وإن كان لديه مال إلا أنه فقير الصحة .

الفاضل يجري على ما هو الجميل ، وقد قال طائفة من الناس : إنه تمني زوال النعمة عن المحسود [١] ، وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلها [٢] ، بخلاف الغبطة : فإنه تمني مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط .

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان : أحدهما : كراهة للنعمة عليه مطلقًا ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا بغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه ، فيكون ذلك مريضًا في قلبه ، ويلتذ بزوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل له نفع بزوالها ، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه ، ولكن الألم لم يَزُل إلا بمباشرة منه ، وهو راحة ، وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكّن وجعه والمرض باق ؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض . فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها ، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود [٣] .

والحاسد ليس له غرض في شيء معين ، لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع ؛ ولهذا قال من قال : إنه تمنى زوال النعمة ، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه .

---

(١) وهذا القول هو المشهور ، ولعله الأقرب .

(٢) فالحسد أنواع : أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود وحصولها له ، وأن يتمنى زوال النعمة عن المحسود ولو لم يحصل له مثلها .

(٣) لهذا قال : « لله دَرَّ الحسد ، بدأ بصاحبه فقتله » ، فالذي يحسد إنسانًا على نعمة ما فإذا زالت هذه النعمة منه فرح بذلك ـ فإن فرحه سيكون مؤقتًا وسرعان ما يزداد الألم والحزن في قلبه ؛ لأن نعم الله على خلقه كثيرة ، فهو سيرى نعم الله على هذا الإنسان الذي حسده فيغتاظ لذلك ، وقد يجد هذه النعم على نفس الإنسان الذي حسده من قبل ، فسيظل هذا الحاسد طول عمره في عذاب وألم ؛ لأن نعم الله ﷻ على عباده لن تتوقف ، ونعوذ بالله من الحسد .

والنوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه ، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه ، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة ، وقد سماه النبي ﷺ حسدًا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالًا فَسَلَّطَه على هلكته في الحق** »[1] ، هذا لفظ ابن مسعود ، ولفظ ابن عمر : « **رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار** »[2] رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار ، فسمعه رجل فقال : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا ، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ، ورجل آتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا** »[3] فهذا الحسد ـ الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين ـ هو الذي سماه أولئك الغبطة ، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه .

فإن قيل : إذًا لمَ سُمِّي حسدًا وإنما أحب أن ينعم الله عليه ؟ قيل : مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه ، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك ، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدًا ؛ لأنه كراهة تتبعها محبة ، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس ، فهذا ليس عنده من الحسد شيء .

---

(١) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٩) ، ومسلم (٨١٥) .

(٣) رواه البخاري (٧٢٣٢) .

لهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني ، وقد تسمى المنافسة ، فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب ، كلاهما يطلب أن يأخذه ، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر ، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر ، والتنافس ليس مذمومًا مطلقًا ، بل هو محمود في الخير ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢-٢٦] .

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل ، وهذا موافق لحديث النبي ﷺ ؛ فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ، ومن أوتي المال فهو ينفقه ، فأما من أوتي علمًا ولم يعمل به ولم يعلمه ، أو أوتي مالًا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يُحسَد ولا يُتَمنى مثل حاله ، فإنه ليس في خير يرغب فيه ، بل هو مُعرض للعذاب ، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل ، أدى الأمانات إلى أهلها ، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة ، فهذا درجته عظيمة ، لكن هذا في جهاد عظيم ، كذلك المجاهد في سبيل الله .

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم ؛ فلهذا لم يذكره [١] ، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال ، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج ، فإن قُدِّر أنهما لهما عدو يجاهدانه ، فذلك

---

(١) أي أن النبي ﷺ لم يذكر الجهاد مع العلم والمال ـ مع أنه خير أيضًا ـ ؛ لأن النفوس تميل دائمًا للراحة ، والجهاد فيه تعب شديد ، فالناس تحسد مَن تظنه في راحة ولا تحسد من هو في تعب عظيم .

أفضل لدرجتهما ، وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاجّ ؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ، ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة ، وإلا فالعامل لا يُحسَد في العادة ، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره ، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرًا ؛ ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان ، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا .

ولهذا ضرب الله ـ سبحانه ـ مَثَلين : مثلًا بهذا ، ومثلًا بهذا فقال : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٥-٧٦] .

والمثلان ضربهما الله ـ سبحانه ـ لنفسه المقدسة ، ولما يعبد من دونه [١] ، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ، ولا على كلام ينفع ، فإذا قدر عبد مملوك لا

---

(١) فهذان المثلان ضربهما الله ﷻ لنفسه المقدسة لبيان بطلان عبادة غير الله من الأوثان وغيرها ، وهناك تفسير آخر لهذين المثلين ، أن هذا مثَل الكافر والمؤمن : فالكافر كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ؛ فهو لا يعطي أحدًا شيئًا ولا يرزق أحدًا شيئًا بخلاف المؤمن فهو صاحب مال ينفق منه سرًا وجهرًا ، والتفسير الأول الذي ذكره شيخ الإسلام أقرب .

يقدر على شيء ، وآخر قد رزقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفق منه سرًا وجهرًا ، وقد ضرب ذلك مثلًا لنفسه ، فإنه ـ سبحانه ـ عالم عادل قادر يأمر بالعدل ، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وقال هود عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) [هود : ٥٦] .

هل يستوي هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سرًا وجهرًا ، وهو ـ سبحانه ـ قادر على الإحسان إلى عباده ، وهو محسن إليهم دائمًا ، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه ، وهذا مثل الذي أعطاه الله مالًا ينفق منه آناء الليل والنهار .

والمثل الثاني : إذا قُدِّر شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء ، وهو مع هذا كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، فليس فيه من نفع قط ، بل هو كلّ على من يتولى أمره ، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ، ويعمل

---

(١) فعابد الوثن هو الذي يحمل ثقل حراسة معبوده والدفاع عنه ونصرته كما قال المشركون من قوم إبراهيم عليه السلام عندما رأوا آلهتهم محطمة ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٤] ، فقالوا عن أنفسهم أنهم ظالمون ؛ لأنهم تركوا آلهتم بدون حراسة ، وكذلك كل من يعبد غير الله يحتاج إلى أن يحفظ معبوده ويحرسه وينصره ؛ لأن معبوده فقير محتاج فهو ثقل على من تولاه وعبده ، فهذا العابد لغير الله في شقاء في الدنيا والآخرة ، أما الله عز وجل فهو قادر عليم حكيم عدل ، كما قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وقال : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] فهو ـ قائم بالقسط على صراط مستقيم ، أفعاله كلها على صراط مستقيم ، أفعاله كلها حكمة وعدل ، وأوامره كلها حكمة وعدل ، وأفعاله وأوامره كأسمائه وذاته في الحُسْن والكمال .

بالعدل ، فهو على صراط مستقيم ، وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس ، فكانوا يعَظِّمون على ذلك ، ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال : هذا والله الشرف ، أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب ﷺ نافس أبا بكر ﷺ الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك مالًا عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقتُه يومًا. قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » قلت : مثله ، وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده فقال له رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبدًا [١] ، فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ، لكن حال الصديق ﷺ أفضل منه ، وهو أنه خالٍ من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره .

وكذلك موسى عليه السلام في حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النبي ﷺ « **فقيل له : ما يبكيك : فقال : أبكي ؛ لأن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي** » [٢] ، أخرجاه في الصحيحين ، وروي في بعض الألفاظ المروية غير الصحيح : « مررنا على رجل وهو يرفع صوته : أكرمته وفضَّلتَه ، قال : فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد ، قال : مرحبًا بالنبي الأمي

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٩٣٩) وحسنه الألباني .

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٤) .

الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، قال : ثم اندفعنا فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى بن عمران ، قلت : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ، قلت : ويرفع صوته على ربه ؟! قال : إن الله قد عرف صدقه »[1] وعمر ﷺ كان مُشَبَّهًا بموسى ، ونبيُّنا حاله أفضل من حال موسى ، فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك . وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه ، كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحًا[2] ؛ ولهذا استحق أبو عبيدة ﷺ أن يكون أمين هذه الأمة ؛ فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما اؤتمن عليه ، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته ؛ ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه

---

(١) بلفظ (حِدَّته) بدل (صدقه) أخرجه ابن عرفة في جزئه المشهور ، قال ابن كثير : إسناده غريب ، قال الألباني في (الإسراء والمعراج) : « لإسناده علتان » .

(٢) ذِكْرُ أبي عبيدة بن الجراح هنا بعد ذِكر عمر ﷺ ؛ لأن النبي ﷺ قال : « **لأبعثَنَّ معكم رجلًا أمينًا حق أمين** » استشرف الناس واستشرف عمر لأن يكون هو ذاك الرجل ، وتمنى الإمارة يومئذ ليس حبًا في الإمارة ولكن منافسةً في الخير ، أما أبو عبيدة فلم يكن في نفسه هذا الاستشراف وهذه المنافسة ؛ فكان أبو عبيدة ﷺ أحق بأن يكون هو ذاك الرجل ؛ لأن نفسه لم تنافس بخلاف عمر ، وإن كان عمر بلا شك أفضل من أبي عبيدة إلا أن التنافس درجة أدنى والدرجة الأعلى أن يحب الخير ويريده دون أن ينظر لفعل غيره ولا أن ينافسه ، وكذلك موسى عليه السلام كان عنده نوع منافسة وغبطة ، وهو مع ذلك أكمل الناس بعد نبينا ﷺ وبعد إبراهيم عليه السلام ، فذكر ابن تيمية رحمه الله هنا موسى عليه السلام وعمر ﷺ ليدل على أن المنافسة في الخير أمر مشروع ، وإن كان الأكمل من ليس في نفسه ذلك . ولا يلزم أن يكون التفضيل والكمال في هذه الجزئية مستلزمًا للتفضيل والكمال من كل وجه أو من المجموع ، فعمر أفضل من أبي عبيدة بالإجماع ، وإنما هذا التفضيل متعلق بقضية الولاية والأمانة لعدم تطلع النفس إلى منافسة .

لا يزاحم على الكبرى ، ويؤتمن على المال من يعرف أنه ليس له غرض في أخذ شيء منه ، وإذا أؤتمن من في نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم ، فلا يقدر أن يؤدي الأمانة في ذلك لما في نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه .

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس ﷺ قال : كنا يومًا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فقال : « **يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة** » ، قال : فطلع رجل من الأنصار تنطُفُ لحيته من وضوء ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فسلَّم ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما قام النبي ﷺ اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ فقال : إني لاحَيتُ أبي ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثًا ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . قال : نعم ، قال أنس ﷺ : فكان عبد الله يحدِّث أنه بات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئًا ، غير أنه إذا تعارَّ انقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبَّر حتى يقوم إلى صلاة الفجر ، فقال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا ، فلما فرغنا من الثلاث وكِدتُ أن أُحَقِّر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات : « **يطلع عليكم رجل من أهل الجنة** » ، فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردتُ أن آوي إليك لأنظر ما عملك ، فأقتدي بذلك ، فلم أرَك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق [1] ، فقول عبد الله بن عمرو له : « هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا نطيق » ، يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد .

---

(١) رواه أحمد (١٢٦٣٣) ، وقال محققه : « إسناده صحيح » .

وبهذا أثنى الله ـ تعالى ـ على الأنصار فقال : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، أي : مما أوتي إخوانهم المهاجرون ، قال المفسرون : لا يجدون في صدورهم حاجة ، أي : حسدًا وغيظًا مما أوتي المهاجرون ، ثم قال بعضهم : من مال الفيء ، وقيل : من الفضل والتقدم ، فهم لا يجدون حاجة مما أتوا من المال ولا من الجاه ، والحسد يقع على هذا .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين ، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضَّلون به عند الله ورسوله أحَبَّ الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك ، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال : ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

وأما الحسد المذموم كله ، فقد قال تعالى في حق اليهود : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، يودون : أي يتمنون ارتدادكم حسدًا ، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق ؛ لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل ، بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم ، وكذلك في الآية الأخرى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ٥٤-٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفلق] .

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه : سحره لَبِيد بن الأعصم اليهودي [1] ، فالحاسد المبغض للنعمة على مَن أنعم الله عليه بها ظالم معتدٍ ، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله [2] ، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به ، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل .

ثم هذا الحسد ، إنْ عَمِلَ بموجبه صاحبُه كان ظالمًا معتديًا مستحقًا للعقوبة إلا أن يتوب [3] ، وكان المحسود مظلومًا مأمورًا بالصبر والتقوى ، فيصبر على أذى

---

(١) انظر البخاري (٥٧٦٦، ٥٨٦٣ ، ٦٣٩١) ، ومسلم (٢١٨٩) .

(٢) فبُغض ما أنعم الله ﷻ به على بعض عباده حرام مطلقًا ، أما كراهة أن يكون هناك أحد أفضل منه : فهذا أن يكون في أمر الدنيا فهو منهي عنه في الجملة ، وأما إذا كان في أمر الدين فهو أمر مشروع ، وإن كان الأكمل ألا يكون في نفسه ذلك . وأصل الحسد في الدين العلم النافع ، والمال المنفَق في سبيل الله .

(٣) فالعمل الذي يستحق صاحبه العقوبة قد يكون عمل القلب منفردًا ، وقد يُضَم إليه عمل الجوارح ؛ فالذي يبغض نعمة الله ﷻ على أحد من خلقه ويتمنى زوال هذه النعمة عنه ـ هذا ظالم معتدٍ على المحسود ، والله ﷻ قد يُقدِّر زوال هذه النعمة عن المحسود بسبب حسد الحاسد ، كما أن الله ﷻ يُقدِّر بسبب السِّحر ، فالحسد والسحر من الأسباب المحرمة التي لها تأثير بقدر الله ﷻ ، وإن كان صاحبها آثمًا معاقبًا على فعله ، والمحسود مظلوم مأمور بأن يصبر على ما أصابه ، فهذا معنى قولنا إن الحسد حق أي أنه حقيقة موجودة وليس معنى (حق) أي عدل ، وكذلك قول النبي ﷺ : « **العين حق** » [رواه مسلم (٢١٨٨)] ، أي حقيقة موجودة ولها تأثير ، والعين أخص من الحسد فلا يُشترط فيها بُغض النعمة أو تمنِّي زوالها عن غيره ، بل قد يصيب بعينه نفسه أو غيره ، فالعين أن يرى الإنسان النعمة وتعجبه ، ولا ينسبها لله ﷻ ، ولا يقول : « ما شاء الله » أو نحو ذلك ، فهي لها أثر بقدر الله ، كما أن الحسد له أثر بقدر

=

الحاسد ويعفو ويصفح عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، وقد ابتُلِيَ يوسفُ بحسد إخوته له حيث قالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] ، فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ؛ ولهذا قال يعقوب ليوسف : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] ، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجب وبيعه رقيقًا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكًا لقوم كفار .

ثم أن يوسف ابتُلِيَ بعد أن ظُلِم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراوده عليها ، ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم ، واختار السجن على الفاحشة ، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله ، فكان مظلومًا من جهة من أحبه لهواه وغرضه الفاسد . فهذه المُحِبَّة أَحَبَّتهُ لهوى محبوبها ، شقاؤها وشقاؤه إن وافقها ، وأولئك المبغِضون أبغضوه بغضةً أوجبت أن يصير مُلقىً في الجب ، ثم أسيرًا مملوكًا بغير اختياره ، فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره ، وهذه ألجأَتْه إلى أن اختار أن يكون محبوسًا مسجونًا باختياره ، فكانت هذه أعظم في محنته ، وكان صبره هنا صبرًا اختياريًا اقترن بالتقوى ، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم ، والصبر الثاني أفضل الصبرين ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ مَن

الله ، وقد أمر الله ﷻ عباده أن يستعيذوا ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٥] ، هذا يدل على أن الحسد له أثر ، وهذا الحسد الباطن ـ الذي هو من عمل القلب ـ كثيرًا ما يقترن به عمل ظاهر ، فأكثر البشر إنما يقعون في عداوة بعضهم بعضًا بسبب الحسد والعياذ بالله .

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] [يوسف : ٩٠] وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه ، وطُلبَ منه الكفر أو الفسوق أو العصيان ، وإن لم يفعل أوذي وعوقب ، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه ، إما الحبس ، وإما الخروج من بلده ، كما جرى للمهاجرين ، حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين ، وكانوا يعذَّبون ويؤذَون .

وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًا ، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره ،وكان هذا أعظم من صبر يوسف ؛ لأن يوسف إنما طُلِب منه الفاحشة وإنما عُوقب إذا لم يفعل بالحبس ، والنبي ﷺ وأصحابه طُلِب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طُلِبَت عقوبتهم بالقتل فما دونه . وأهون ما عوقب به الحبس ، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشِّعب مدة ، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه ، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ، ولم يكن أحد يهاجر إلا سرًا ، إلا عمر بن الخطاب ونحوه ، فكانوا قد ألجؤوهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا مَنعوا مَن منعوه منهم عن ذلك وحبسوه [2] فكان ما حصل

---

(١) فالله ﷻ يجعل في عاقبة الصبر كل خير خصوصًا الصبر الاختياري ، وإن كان الصبر على المصائب عاقبته خير أيضًا ، فيوسف عليه السلام لما صبر على ما فعله إخوته جازاه الله ﷻ بأن جعله مكرَّمًا عند العزيز ثم منصورًا على من ظلمه .

(٢) وقد كانت العاقبة التي جعلها الله ﷻ لرسوله ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم خيرًا بعد صبرهم الذي صبروه بمكة ، فمكَّن الله ﷻ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة حتى عادوا بعد ثماني سنوات إلى مكة في عزة ومنعة ، وفتح الله ﷻ لهم الجزيرة العربية والأمصار كلها حتى صاروا ملوك الأرض بعد أوقات كانوا لا يجدون فيها طعامًا إلا أوراق الشجر رضي الله عنهم .

للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعةً لله ورسوله ، لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبْس يوسف ، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه ، وهذا أشرف النوعين ، وأهلها أعظم درجة ـ وإن كان صاحب المصائب يُثاب على صبره ورضاه وتُكَفَّر عنه الذنوب بمصائبه ـ فإنَّ هذا أُصيب وأوذي باختياره طاعةً لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] ، بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد ، كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها ، لا على نفس ما يحدث من المصيبة ، لكن المصيبة يكفر بها خطاياه ، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها .

والذين يُؤْذَوْن على الإيمان ، وطاعة الله ورسوله ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج ، أو مرض ، أو حبس ، أو فراق وطن وذهاب مال وأهل ، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال ، هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين ، فهؤلاء يُثابون على ما يُؤْذَوْن به ويُكتب لهم به عمل صالح ، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملًا فَعَلَه يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري ، وهي التي يقال لها مُتولِّدة .

وقد اختلف الناس : هل يقال : إنها فِعلٌ لفاعل السبب ، أو لله ، أو لا فاعل لها ، والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب ، وسائر الأسباب ؛ ولهذا كُتب له بها عمل صالح .

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس ، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ؛ ولهذا يقال : « ما خلا جسد من حسد ، لكن اللئيم يُبديه والكريم يُخفيه » ، وقد قيل للحسن البصري : أيَحسُد المؤمن ؟ فقال : ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك ! ولكن عَمِّهِ في صدرك ، فإنه لا يضرك ما لم تَعْدُ به يدًا ولسانًا [١] .

فمن وجد في نفسه حسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر ، فيكره ذلك من نفسه [٢] .

وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود ، فلا يعينون من ظلمه ، ولكنهم أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه ، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذَمِّه ولا يذكرون محامده ، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك ، لا معتدون عليه [٣] ، وجزاؤهم أنهم

---

(١) قوله : « أيحسد المؤمن » أي الذي في قلبه أصل الإيمان ، والمؤمن الذي في قلبه الإيمان الكامل لا يحسد هذا الحسد المحرَّم ، فلا شك أن أخوة يوسف عليه السلام وقعوا في الحسد لنقص إيمانهم .
وقوله « ولكن عَمِّه في صدرك » أي أخفه في صدرك حتى يزول بإذن الله تعالى بالمقاومة والمدافعة له ، فيجب على المؤمن أن يكره ذلك من نفسه ويدفعه عنه ، ويتفكر في نعم الله عليه وعطائه ، وأن الله تعالى هو الذي قسم هذه الأرزاق كما قال النبي ﷺ : « **من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدى شكر يومه ومن قالها إذا أمسى فقد أدى شكر ليلته** » [رواه أبو داود (٥٠٧٣) ، وابن ماجه (٨٥٨) وضعفه الشيخ الألباني ، وحسنه الشيخ ابن باز في (التحفة)] ، فإذا تأمل الإنسان هذا الدعاء واستحضره قلبُه فلابد أن يزول الحسد من قلبه بإذن الله .
(٢) يكره من نفسه أنها تحب زوال النِّعم ، ويكره من نفسه أنها تحب أن لا يَفْضُلها أحد .
(٣) فحق المسلم على أخيه المسلم نوعان : حق بالفعل ، وحق بالترك ، يفعل المعروف
=

يُبخَسُون حقوقهم فلا يُنْصَفُونَ أيضًا في مواضع [١] ، ولا يُنصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود .

وأما من اعتدى بقول أو فِعل فذلك يُعاقب [٢] ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين ، نفعه الله بتقواه ؛ كما جرى لزينب بنت جحش رضي الله عنها فإنها كانت هي التي تُسامي عائشة من أزواج النبي ﷺ [٣] وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب ، لا سيما المتزوجات بزوج واحد ، فإن المرأة تغار على زوجها لِحَظِّها منه ، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها ، وهكذا الحسد يقع كثيرًا بين المتشاركين في رئاسة أو مال ، إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك وفات الآخر ، ويكون بين النُظَراء لكراهة أحدهما أن يَفْضُل الآخر عليه ، كحسد إخوة يوسف ، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه ، فإنه حسده لكَون أنَّ الله تقبل قربانه ، ولم يتقبل قربان هذا ، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى

الواجب ،ويترك أذيته المحرمة ، فإذا ترك أذية أخيه ولكنه لم يدفع عنه في غيبته ولم يذكر محامده ومحاسنه فهو لم يعتدِ عليه ، لكنه لم يفعل الواجب عليه تجاه أخيه من رد غيبته وذِكر محامده ؛ فهو بذلك لم يؤَدِّ حقَّه .

(١) ففي بعض المواضع لا يَرُدّ أحد عنهم ولا يَنْصِفُهم بالرغم أنهم مظلومون ويستحقون الدفاع عنهم لكن الله بعدله ﷻ جازاهم بما تركوا من حق إخوانهم .

(٢) لا يلزم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن من ترك الواجب تجاه أخيه أنه يعاقب في الدنيا فقط ، بل قد يعاقب على ذلك في الآخرة أيضًا ، فلو أن أحدًا رأى إنسانًا يقتل آخر وبينه وبين هذا المعتدى عليه عداوة وهو قادر علي الدفاع عنه وتركه يُقتل ، فهو بلا شك آثم ويستحق العقاب على ذلك في الآخرة .

(٣) لما وقعت حادثة الإفك سأل النبي ﷺ زينب رضي الله عنها عن عائشة رضي الله عنها ، فقالت : « أحمي سمعي وبصري » [رواه البخاري ومسلم] .

ـ كحسد اليهود المسلمين ـ [١] وقتَله على ذلك ؛ ولهذا قيل : أول ذنبٍ عُصِي الله به ثلاثة : الحرص ، والكبر ، والحسد ، فالحرص من آدم ، والكبر من إبليس ، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل [٢] ، وفي الحديث : « **ثلاث لا ينجو منهن أحد : الحسد ، والظن ، والطِّيَرة ، وسأحدثكم بما يُخْرِجُ من ذلك : إذا حسدت فلا تُبغض ، وإذا ظننت فلا تُحقِّق ، وإذا تَطَيَّرت فامضِ** » رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة [٣] .

وفي السنن عن النبي ﷺ : « **دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء وهي الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين** » [٤] فسماه داءً كما سمى البخل داءً في قوله : « **وأي داءٍ أدوأ من البخل ؟** » [٥] فعُلم أن هذا مرض ، وقد جاء في حديث آخر : « **أعوذ بك من مُنكرات الأخلاق والأهواء والأدواء** » [٦] فعطف الأدواء على الأخلاق والأهواء .

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] فاليهود أشد الناس حسدًا للمسلمين ؛ لذلك تجدهم حريصين على نشر الفساد والمعاصي والكفر والعياذ بالله .

(٢) والكبر والحسد متلازمان فإبليس تكبَّر أن يسجد لآدم ، وذلك حسدًا منه لآدم عليه السلام .

(٣) قال العجلوني في (كشف الخفاء) (٢٢٠٨) إن إسناده ضعيفٌ . وقال ابن الجوزي في (تذكرة الموضوعات) : « فيه مضعَّفان » وقال العراقي في تخريج (الإحياء) : « أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضًا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف » .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسنه الألباني .

(٥) رواه البخاري (٣١٣٧) .

(٦) رواه الترمذي (٣٨٤٣) بلفظ : « **اللهم أني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال ، والأهواء** » وصححه الألباني .

فإن الخلق ما صار عادةً للنفس ، وسَجِيَّة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، قال ابن عباس ، وابن عيينة ، وأحمد بن حنبل رضي الله عنه : « على دين عظيم » ، وفي لفظ عن ابن عباس : « على دين الإسلام » ، وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » [1] ، وكذلك قال الحسن البصري : « أَدَبُ القرآن هو الخلق العظيم » .

وأما الهوى ، فقد يكون عارضًا ، والداء هو المرض ، وهو تألم القلب والفساد فيه ، وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء ؛ لأن الحاسد يكره أولًا فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل إلى بغضه ، فإن بُغض اللازم يقتضي بُغض الملزوم ، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة وهو يحب زوالها ، وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه وأحب عدمه ، والحسد يوجب البغي ، كما أخبر الله ـ تعالى ـ عمَّن قبلنا : أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم ، بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض ، كما يبغي الحاسد على المحسود [2] .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، يلتقيان فَيَصُدُّ هذا ويَصُدُّ هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام** » [3] ، [4] وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) .

(٢) فليست كل أمراض الأمم أصلها الجهل ، بل قد يوجد العلم ولا ينفع إذا وُجد معه بغي ؛ فليس العلم هو الذي أوجب الضلال والفرقة ، وإنما البغي هو الذي أوجب ذلك .

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩) .

(٤) التباغض والتدابر والتقاطع له أسباب كما أن الحب والمودة لها أسباب ، فالنهي عن التدابر =

أنس أيضًا : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[١] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٧٢-٧٣] ، فهؤلاء المبطِّئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم ، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم [٢] ، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها [٣] ، بل أحبوا أن

والتباغض يشمل النهي عن الأسباب التي تؤدي لذلك كمن يكلم أخاه بأُسلوب يؤذيه ، أو ينتقصه ، أو يستهزئ به ، ونحو ذلك مما يُولِّد التباغض والتدابر ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يتناجَ اثنان دون الثالث من أجل أن ذلك يحزنه » [رواه البخاري (٦٢٩٠) بلفظ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ؛ أجْلَ أن يحزنه » ، ومسلم (٢١٨٤) بلفظ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه » ، ابن ماجة (٣٠٤٢) بلفظ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون صاحبهما ؛ فإن ذلك يحزنه » ، وهذا اللفظ صححه الألباني] ، فكل سبب يحزن المسلم فهو منهيٌّ عنه .

أما بغض العصاة والكفار فهو واجب ؛ لأنه بغض في الله وليس لحظ النفس أو الهوى ، وقد قال ﷺ : « الحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان » [رواه الحاكم والطبراني ،وصححه الألباني في (صحيح الجامع ٢٥٣٩) بلفظ : « أوثق عرى الإيمان : الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله »] .

(١) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٢) إن أصاب المسلمين مصيبة ولم يكن حاضرًا يظن أن ذلك فضل ونعمة من الله عليه ، فهو لا يعتبر نفسه جزءًا من هؤلاء المصابين ، بخلاف المؤمن حقيقة فإنه وإن لم يحضر المصيبة إلا أنه يتألم بها ؛ لأنه يشعر أنه هو والمصاب بها جسد واحد .

(٣) ولو كان في قلبه حب وود للمؤمنين لفرح لفرحهم ، لكن الذي يهمه أنه لم يكن حاضرًا =

يكون لهم منها حظ ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم ، أو شر دنيوي ينصرف عنهم ؛ إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم ، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ، ومن لم يَسرُّه ما يسرُّ المؤمنين ، ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم .

ففي الصحيحين عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهر** » [1] ، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا** » ، وشبك بين أصابعه [2] ، والشُّح مرض ، والبخل مرض ، والحسد شر من البخل ، كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال : « **الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** [3] ، **والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفي الماء النار** » [4] .

وذلك أن البخيل يمنع نفسه ، والحسود يكره نعمة الله على عباده ،

هذا الفضل الدنيوي ، فهو حزين لذلك . أما المؤمنون حقيقة فتجدهم يفرحون لفرح بعضهم ، فمثلًا عندما تاب الله ﷻ على الثلاثة المخلفين ومنهم كعب بن مالك رضي الله عنه ، تسارع الصحابة رضي الله عنهم يهنئونه بالتوبة ، فهم فرحوا بالتوبة رغم أن المعصية لم تكن منهم ولكنهم يفرحون لفرح بعضهم .

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠٣) ، وضعفه الألباني .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألباني .

وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه وحسد لنظرائه ، وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح أصل ذلك [١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا** » [٢] ، وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول : « اللهم قِني شح نفسي » ، فقال له رجل : ما أكثر ما تدعو بهذا ، فقال : « إذا وُقيتُ شح نفسي وُقيتُ الشحَّ والظلم والقطيعة » [٣] والحسد يوجب الظلم .

---

(١) فالشح أصل البخل والحسد ، والشح هو الحرص على ما عند الناس والرغبة في تحصيله دونهم . فأما المحرَّم فبأن يمنع الواجب كالامتناع عن الزكاة الواجبة والنفقات الواجبة على الأهل والعيال أو الامتناع عن حق الضيف الواجب ونحو ذلك ، وأما المكروه فبأن يضيِّق على من يعول ويستقصي قدر الواجب دون زيادة بما يخالف العرف الحسن والعشرة الطيبة .

(٢) رواه مسلم ، باب تحريم الظلم بلفظ : « اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهم عَلَى أَنْ سَفكُوا دِمَاءَهُمْ واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » ولم أجده في البخاري .

(٣) وفي رواية : « إذا وقيتُ شح نفسي لم أسرق ولم أزنِ ولم أفعل » أي لم أفعل المعاصي ، وهذا من فهم الصحابة ﷺ لمرض الشح أنه ليس محصورًا في المال ، بل هو الحرص على ما عند الناس عمومًا ، فالذي يزني إنما يزني لحرصه على ما عند الناس وكذلك الذي ينظر إلى النساء إنما تطلَّع إلى ما لا يحل له وكل ذلك أصله الشح الذي هو أصل المعاصي ، والفرق بين الشح والبخل أن البخل هو منع المرء ما في يده وقد يكون محرَّمًا وقد يكون مكروهًا .

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وحبها لما يضرها ، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب ، وأما مرض الشهوة ، والعشق فهو حب النفس لما يضرها ، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها [1] ، والعشق مرض نفساني ، وإذا قويَ أثره في البدن صار مرضًا في الجسم ، إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا ؛ ولهذا قيل فيه : هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك .

والمقصود هنا مرض القلب ؛ فإنه أصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي ما يضره . وإذا لم يطعم ذلك تألم ، وإن أطعم ذلك قوي به المرض وزاد ، كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعًا ، بل ويضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك ، فإن مُنِع من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أعطي مشتهاه قوي مرضه ، وكان سببًا لزيادة الألم .

وفي الحديث : « **إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب** » [2] ، وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في كتاب (الزهد) يقول الله تعالى : « إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها ، كما يزود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة ، وإني لأُجَنِّبُهم سكونها وعيشها كما يُجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغِرَّة ، وما ذلك لهوانهم علي ،

---

(١) كمن يبغض زوجته من أجل عشيقته .

(٢) رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨١٤) بلفظ : « **إن الله – تعالى – ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه** » .

ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفرًا لم تَكْلَمْهُ الدنيا [1] ولم يطفئة الهوى » [2] ، وإنما شفاء المريض بزوال مرضه ، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه .

والناس في العشق على قولين : قيل : إنه من باب الإرادات ، وهذا هو المشهور . وقيل : من باب التصورات [3] ، وإنه فساد في التخييل ، حيث يتصور المعشوق على غير ما هو به ، قال هؤلاء : ولهذا لا يوصف الله بالعشق ، ولا أنه يُعْشَقُ ؛ لأنه منزه عن ذلك ، ولا يُحمد من يتخيل فيه خيالًا فاسدًا [4] .

وأما الأولون فمنهم من قال : يوصف بالعشق فإنه المحبة التامة ، والله يُحِبُّ ويُحَبُّ ، وروى في أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : لا يزال عبدي يتقرب إليَّ يعشقني وأعشقه [5] . وهذا قول بعض الصوفية .

---

(١) تكْلمه : أي تجرحه وتنقصه الدنيا .

(٢) وهذا الأثر وإن كان من الاسرائيليات إلا أن معناه صحيح ، ثبت معناه بالكتاب والسنة . فإنه من الخير أن يجعل الله ﷻ رزق المؤمن كفافًا مع القناعة والرضا ، فالدنيا هيِّنة على الله ﷻ ؛ ومن أجل ذلك لم يعطها لأوليائه كاملة ومن أُعطِيَها منهم وفَّقهم لإنفاقها في الخير ، وإن كان الأكمل من كان رزقه فيها كفافًا ، وفي هذا المعنى قال ﷺ : « **ما من سرية تغزو فتَسْلَم أو تغنم إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وما من سرية تصاب وتخفق إلا ادُّخِر لهم أجرُهم كاملًا** » [رواه مسلم (١٩٠٦) بلفظ : « **ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم** » وفي رواية مسلم : « **وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم** »] .

(٣) والصحيح أن العشق يجمع بين فساد الإرادة وفساد التصور ، فمن الممكن أن يخيَّل له امرأة جميلة وهي في حقيقة الأمر ليست كذلك ، فهذا من باب التصور ، ثم هو يحبها ويريدها فهذا من باب الإرادة .

(٤) إطلاق وصف العشق على الله ﷻ ، جمهور أهل السنة لا يجوزونه ، وسيأتي كلام شيخ الإسلام رحمه الله في ذلك .

(٥) لا يثبت هذا الكلام عن أحد من السلف ولا يثبت عن أحد أنه وصف الله ﷻ بأنه يَعشِق أو يُعشَق .

والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله ؛ لأن العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي ، والله ـ تعالى ـ محبته لا نهاية لها ، فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته .

قال هؤلاء : والعشق مذموم مطلقًا لا يُمدح لا في محبة الخالق ، ولا المخلوق ؛ لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود ، وأيضًا فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأةٍ أو صبي ، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ، ومحبة الأنبياء والصالحين ، وهو مقرون كثيرًا بالفعل المحرم : إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي ، يقترن به النظر المحرم ، واللمس المحرم ، وغير ذلك من الأفعال المحرمة .

أما محبة الرجل لامرأته أو سُرِّيَّته [1] محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ، ويترك ما يجب ، كما هو الواقع كثيرًا ، حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة [2] ، لمحبته الجديدة ، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه ، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه ، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله ، أو يسرف في الإنفاق عليها ، أو يمكّنها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه ، وهذا في عشق من يباح له وطؤها .

فكيف عشق الأجنبية والذُّكران من العالمين ؟ ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد ، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعِرضه ، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه ، قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، ومن في قلبه مرض الشهوة ، وإرادة الصور متى

---

(١) السُّرِيَّة : الأمة المملوكة الموطوءة .

(٢) العتيقة : أي القديمة .

خضع المطلوب طمع المريض [١] ، والطمع الذي يقوي الإرادة والطلب ، ويقوي المرض بذلك ، بخلاف ما إذا كان آيسًا من المطلوب ، فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب ، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه ، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلًا ، بل يكون حديث نَفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ، ونحو ذلك فيأثم بذلك [٢] .

فأما إذا ابتلى بالعشق وعَفَّ وصبر ، فإنه يثاب على تقواه الله [٣] ، وقد روى في الحديث أن « **من عشق فعفَّ وكتم وصبر ثم مات كان شهيدًا** » [٤] ، وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا ، وفيه نظر ولا يُحتَجُّ بهذا .

لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عفَّ عن المحرمات نظرًا وقولًا وعملًا ، وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم ، إما شكوى إلى

---

(١) والناس اليوم في جميع أنحاء العالم يُدفعون دفعًا نحو هذا المرض فتجد الثقافة الغربية قائمة على إشاعة الفاحشة ، وإثارة الشهوات وحب المال والتنافس عليه ، وإشاعة الحقد والحسد والبخل والكبر ونحو ذلك ، والمال والرياسة تصب كثيرًا في الشهوات الجنسية المحرمة .

(٢) فحتى يوجد العشق في القلب لابد أن يسبقه طمع في المعشوق ، فإذا انقطع أمله فيه وأيس منه فلا يكون في نفسه حينئذ سوى حديث النفس ، فلا يبقى في النفس عزم ولا إرادة لهذا المطلوب ، وحديث النفس الذي لم يقترن معه عزم ولا إرادة جازمة ، لا يحاسب العبد عليه ، ولا يعاقب به ، ثم إنه سريع الزوال لا يستقر في القلب .

(٣) فالذي يعشق امرأة ثم تاب من ذلك فإنه سيجد في أول الأمر ألمًا وشدة ، فإذا صبر على هذا الألم وعفّ نفسه عن هذه المرأة ، وقطع كل سُبل الوصال بينه وبينها ، وغض بصره عنها ، فإنه يثاب على ذلك . ولن يدوم هذا الألم في قلبه إن شاء الله ﷻ .

(٤) قال عنه الألباني : موضوع . انظر (ضعيف الجامع الصغير ٥٦٩٨ ، ٥٦٩٧) ، (الضعيفة ٤٠٩) .

المخلوق وإما إظهار فاحشة ، وإما نوع طلب للمعشوق ، وصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى ما في قلبه من ألم العشق ، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس ، وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل في قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] ، فالنفس إذا أحبت شيئًا سعَت في حصوله بما يمكن ، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقدمات لتلك الغاية ، فمن أحب محبة مذمومة [١] أو أبغض بغضًا مذمومًا [٢] وفعل ذلك كان آثمًا ، مثل أن يبغض شخصًا لحسده له فيؤذي من له به تعلق ، إما بمنع حقوقهم ، أو بعدوان عليهم . أو لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم ، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله ، وهذه أمراض كثيرة في النفوس ، والإنسان قد يبغض شيئًا فيبغض لأجله أمورًا كثيرة بمجرد الوهم والخيال .

---

(١) الحب المذموم الذي يكون لغير الله بل لاتباع الهوى : كالعشق المحرم لأجنبية الذي يستلزم النظر والخلوة واللمس أو الفاحشة والعياذ بالله .

(٢) البغض المذموم هو الذي يكون لغير الله ﷻ ، بل لنيل حظ من الدنيا وشهواتها ، كمن يبغض من ينافسه على شيء من الدنيا ؛ لأنه يحب أن يتفرد دون غيره بهذه الشهوات ؛ فبغضه مذموم ، ثم هو يؤدي إلى العداوة والبغي والظلم للشخص المبغوض ولمن يتعلق به كأهله أو أولاده أو تلامذته .

وكذلك يحب شيئًا فيحب لأجله أمورًا كثيرة ، لأجل الوهم والخيال ، كما قال شاعرهم :

أحِبُّ لحُبِّها السُودانَ حتَّى ... أحِبّ لحبِّها سُودَ الكلاب

فقد أحب سوداء ، فأحب جنس السواد ، حتى في الكلاب ، وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته . فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يعافي قلوبنا من كل داء ، ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء .

والقلب إنما خُلق لأجل حب الله ـ تعالى ـ وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنتِجُ البهيمة بهيمة جَمعَاء ، هل تحسون فيها من جَدعَاء** » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : « اقرؤوا إن شئتم ﴿ **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ** ﴾ [الروم : ٣٠] ، أخرجه البخاري ومسلم[1] .

فالله ـ سبحانه ـ فطر عباده على محبته وعبادته وحده ، فإذا تُركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفًا بالله محبًا له عابدًا له وحده ، لكن تَفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها ، وإن كانت بقضاء الله وقدره[2] ـ كما يُغَيَّر البدن بالجدعِ ـ ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله ـ تعالى ـ لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة .

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

(٢) يعني أن الله قد يُقَدِّر أمورًا مكروهة له ـ سبحانه ـ لِحِكَم بالغة مثل تغيير الفطرة عن الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ، فهي مخالفة للشرع واقعه بقدر الله وقدرته لحكمة بالغة .

والرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها ، وإذا كان القلب محبًا لله وحده مخلصًا له الدين ، لم يُبتل بحب غيره أصلًا ، فضلًا أن يُبتلى بالعشق ، وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده .

ولهذا لما كان يوسف محبًا لله مخلصًا له الدين لم يُبتَلَ بذلك ، بل قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) [يوسف : ٢٤] . وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها ؛ فلهذا ابتُلِيَتْ بالعشق ، وما يُبتَلَى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه ، وإلا فالقلب المنيب إلى الله ـ الخائف منه ـ فيه صارفان يصرفانه عن العشق : أحدهما : إنابته إلى الله ؛ ومحبته له ، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء ، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه .

والثاني : خوفه من الله ، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه ، وكل من أحب شيئًا بعشق أو غير عشق فإنه يُصرَف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه ، إذا كان يزاحمه ، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغَض إليه من ترك ذاك الحب ، فإذا كان اللهُ أحبَ إلى العبد من كل شيء ، وأخوفَ عنده من كل شيء ، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف ، بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفًا منه وترك

(١) كثيرًا ما يحتج شيخ الإسلام بهذه الآية على القراءة الثانية لها « المخلِصين » أي الذين أخلصوا عبادتهم ومحبتهم لله ﷻ ، وأما على القراءة الأولى « المخلَصين » بالفتح : فهي بمعنى الذين أخلصهم الله لعبادته ووفقهم لذلك ، فهي على القراءة الأولى بالخفض تحقيق لمعنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وعلى القراءة الثانية المشهورة بالفتح تحقيق لمعنى ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

المعصية حبًا له وخوفًا منه قوي حبه له وخوفه منه ، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره .

وهكذا أمراض الأبدان : فإن الصحة تُحفظ بالمثل ، والمرض يدفع بالضد ، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل ، وهو ما يورث القلب إيمانًا من العلم النافع والعمل الصالح ، فتلك أغذية له ، كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا : « **إن كل آدِب يحب أن تؤتى مَأدُبتَه ، وإن مأدُبة الله هي القرآن** »[1] .

والآدِب : المضيف فهو ضيافة الله لعبادة آخر الليل ، وأوقات الأذان والإقامة ، وفي سجوده ، وفي أدبار الصلوات ، ويضم إلى ذلك الاستغفار ، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه ، متعه متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى .

وليتخذ وردًا من الأذكار في النهار ، ووقت النوم ، وليصبر على ما يَعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بِرُوحٍ منه ، ويكتب الإيمان في قلبه . وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة ؛ فإنها عمود الدين ، وليكن هِجِّيرَاه[2] « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فإنها بها تُحمل الأثقال ، وتُكابد الأهوال ، ويُنال رفيع الأحوال .

ولا يسأم من الدعاء والطلب ، فإن العبد يُستجاب له ما لم يَعْجَل ، فيقول : قد دعوت ودعوت فلم يُستجب لي ، وليعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا ، ولم ينل أحد شيئًا من ختم الخير ، نبي فمن دونه إلا بالصبر .

---

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢٠١٢) وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) (٤٢٤٧) ، وقال في (السلسلة الضعيفة والموضوعة) (٢٠٥٨) : « موضوع » .

(٢) هِجِّيرى الرجل : كلامه ودأبه وشأنه . (لسان العرب) (٥/ ٢٥٠) .

والحمد لله رب العالمين ، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة ، حمدًا يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

